

أخلاق البدو

عاتق بن غيث البلادي

دار مكة

د. عاتق بن غيث البلادي

أخلاق البدو

(في أشعارهم وأخبارهم)





أخلاق البدو

(في أشعارهم وأخبارهم)

الطبعة الأولى
١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م

دار مكة
للطباعة والنشر والتوزيع
مكة المكرمة - ساحة إسلام
هاتف : ٥٤٤٧٤٩٤
ص. ب. : ٢٩٩٢
برقياً : دام

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله المنعم المتفضل ، والصلاة والسلام على سيد ولد آدم ، وبعد :

إن بدوي الصحراء ـ اليوم ـ هو امتداد طبيعي لذلك البدوي الجاهلي .

غير أن الإسلام قد هذّب من طباع بدوي اليوم ، وحدَّ له حدوداً ، إن لم يتمسك بها فعلاً فلا يستطيع تجاوزها مجاهرة .

وقيّده بقيود دينية وأخلاقية ، وجعل للحاكم تنفيذ هذه الحدود والقيود ، فخف غلو البدوي ، وأمسك بزمامه ولو جزئياً .

ولكن زمناً مرّ على القبائل في جزيرة العرب عاشته عيشة انعزالية ، بعد أن اضمحلت السلطة الفعلية على البادية ، فصارت كل قبيلة تشكل كياناً خاصاً يشبه دولة في داخل دولة ، فكانت للقبيلة حدودها التي لا يجتازها أحد إلا بذمار منها ، ولها لهجتها الخاصة نتيجة الانعزال ، وكان (حرد)[1] القبيلة يعرف أينما وجد أحد من أبنائها .

---

(١) الحرد : الزي والقسمات ، وكل ما يدل على هوية الإنسان .

ونظراً لهذا الانغلاق تكونت معارفهم من مجالسهم ، وصارت عادات القبيلة الواحدة تختلف عن جارتها .

فإذا سألت قَبَلياً عن شيء ما ، قال لك (هذا ما هو سِلْفنا ، هذا سلف بني فلان)[1] .

فكل قبيلة لها سِلْف تسير عليه أجيالها ، ومن يخرج عنه يعد مارقاً ؛ حتى مخارج الحروف لو أراد شاب أن يخرجها كما سمعها من عربي آخر ، لرأيت القوم ينظرون إليه شزرا . !

من هنا كان تهذيب النشء وتربيته مأخوذ عن عادات وطرائق ظل يرثها من أخلاق وصفات العربي الأول .

وشِعْر هذا العربي هو شعر سلفه ، مع اللحن في الكلمة ، فذاك كان عربياً سليقياً ، وهذا قفي أثر مرَّت عليه قرون غيَّرت من فهم هذا الإنسان وسرعة تحريف الألفاظ بصيغتها العربية الأولى .

وإذا تتبعت أغراض شعر البدوي اليوم وجدتها هي أغراض شعر بدوي الجاهلية ، وأخباره وقصصه نفس أخبار وقصص سلفه .

فحياتهما وعاداتهما وجميع شؤونهما تكاد تكون متطابقة ، إلا فيما غيّره أو هذب منه الإسلام .

ولم أدّعِ انني ألممت لك بكل أخلاق البدوي في هذا الكتاب إنما أعطيتك لمحة موجزة ، وخلاصة يمكن أن تفهم منها نفسية هذا الإنسان ، وعلى أساسها يتم التعامل معه .

وليس صحيحاً أن البدو تغلب على طباعهم الجلافة والحدة ، فالبدوي إنسان حساس رقيق الشعور تقوده الكلمة الطيبة ، ويغتر بمن يتوسم فيه الخير .

غير أنه لا يرضى الإهانة ولا الضيم ولا ما يدنّس الشرف ، فإذا مسست منه هذه الأمور وجدت شخصاً غير الذي تعرفه ، وتغير خلقه وطبعه حتى يعود إليه ما يراه حقاً من حقوقه .

ونختتم هذه الكلمة بالصلاة والسلام الدائمين المتصلين على خاتم الأنبياء والمرسلين ، وسيد الأولين والآخرين .

المؤلف

مكة

في التاسع من رمضان المبارك سنة ١٤٠٣ هـ



فيما كتب الأقدمون أنَّ للعرب خصالاً حميدة وأخرى ذميمة .

فمن الخصال الحميدة : الكرم ، وحسن الجوار ، وإغاثة اللهفان ، وغيرها .

وكل هذه أقرّها الإسلام وحثَّ على التمسك بها ، كما سيأتي :

ومن أخلاقهم الذميمة : شرب الخمر ، ووأد البنات ـ عند بعض أشرافهم ـ وزواج المقت ، وهذه حرمها الإسلام وشدد في النهي عنها وحدّ لها حدودا .

ولما كان عربي اليوم ـ في جزيرة العرب ـ هو امتداد لعربي ما قبل الإسلام : نسباً وصفات ، فقد ورث عنه تلك الأخلاق التي أقرّها الإسلام ، وأضاف إليها أخلاقاً أخرى مكتسبة ، إما بحكم حاجة المجتمع إليها أو بحكم حب البقاء وإصلاح الخلف ، والعبادة ، ونحو ذلك .

ولعرب اليوم أخبار ـ في الكرم ـ لا يصدّقها صاحب المدينة ، الذي يرى أن الكرم للمجاملات واصطناع الأيدي للمصالح

الخاصة ، أو إكرام ذوي المقامات العالية . ولكن ذلك البدوي في الصحراء يعرف الكرم معرفة تختلف عن هذا ، يعرف الكرم بأنه لقمة في بطن جائع ، أو منيحة لمن لا شاة له ولا بعير ، أو عريّة لمن لا نخل له . . . الخ[1].

وهذا رجل من سبيع ضافه أضياف وليس لديه غير شاة حلوب ، وله طفل عجيّ يعاجى بحليب تلك العنز ، فأسرع يذبحها لضيوفه في أريحية شلت تفكيره عن مصير الإبن العجي ! .

وهذا الشيخ محمد بن حمادي ـ أحد شيوخ قبيلة حرب ـ ظل وأسرته ليالي لا تشب لهم نار ، فاحتالت امرأته حتى أعدت له طعاماً زهيداً ، فلما قربته منه رأى ضيفاً مقبلاً من بعيد ، فقال لإمرأته : إرفعي هذا الطعام ، فقالت : بل تصيب منه حتى يصل ذلك الرجل فيشاركك إيّاه ، فرفض وأصرّ على أن يرفع . وعندما حضر الضيف قدّم ذلك الطعام بين يديه ، فلم يبق منه الضيف شيئاً لقلته وجوع الضيف ، وكان الشيخ مسروراً بذلك على ما به من فاقة . ألا يشمل هذا الشيخ قول الله تعالى : ﴿ **ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة** ﴾ ؟ .

والمرأة العربية تكره الرجل البخيل ، وقد تطلب منه الطلاق!
وهذا رجل ضاف رجلاً آخر فلم يكرمه ، ولم يعشِّ مطيته ،

---

(١) المنيحة : ناقة أو شاة حلوب ، تعطى لمن لا حلوب له ، فإذا غرز لبنها ردّها الى المانح . والعرية : نخلة أو عنبة تعطى لمن لا نخل له ، يخرفها ويجدها صيفة واحدة .

فسرح من عنده وضاف ابن عم له ، فسمعه يقول لزوجته قولاً يدل على البخل ، فقام يشد على مطيته وهو يقول[1] :

يـا سايـل عنا تـرانا من العِيص
من الجبـل نبي نميّل تهـامـه
وكنا ضيوف لابن عمّك حريميص
منّي ومن سبـلا غشيـه المـلامـه
أنا لقيت البِيض ما عندهن قَيْس
نجـل العيون مـردّعات الـوشامـه
يا ليتهن ما يـأخذن الحـراسيس
لا واخسارة حِبّةٍ في الـظلامه[2]

فقيل أن زوجتيهما هربتا عيافة أن تعاشرا بخيلين .

ومن عرب اليوم من سارت بأخبار كرمه الركبان ، منهم : حجرف الذويبي ، وابن مهيد المصوِّت بالعشاء .

وقلة اشتهار كرمائهم تعود إلى كثرتهم ، فلا تكاد تقول : فلان كريم ، حتى يعترض عليك معترض قائلاً : العرب كلهم كرام ، ولفظة العرب هنا تعني البادية .

فمن أخبار حجرف الذويبي : أنه ذبح كل ما يملك من ماشية إكراماً لضيوفه ، فلما أملق رحل قومه وتركوه وهو نائم ، فلما استيقظ أخذت امرأته تلومه على إسرافه رغم كرمها هي أيضاً ورجاحة عقلها ، فلم تزده إلا إصراراً على طبعه .

---

(١) الأدب الشعبي في الحجاز : ص ٩٤/ط ٢ .
(٢) الحبة : القبلة .

وبعد مدة تأسف قومه على ما فعلوا ، فأرسلوا نفراً منهم على مطايا ، وقالوا لهم : (عودوا إلى المنزل وهاتوا حجرف) ! وعندما اقترب ذلك النفر من منزل حجرف قال بعضهم لبعض : إن حجرف ليس لديه ما يذبح لكم ، ولئن جئتموه بمطاياكم ليذبحن إحداها ! فاتفقوا على أن يخفوا مطاياهم ثم يأتوه سيراً ! وهكذا كان ، فلما جاءوه أسقط في يده ، فشاور زوجته (سارة) ، فقالت : شب النار ثم أقم الرجال واحداً واحداً تريهم أنك تختار لهم المقاعد الزينة ! ثم انظر إلى خلف كل واحد أثناء قيامه ، فإن وجدت في ثيابهم أثر ركوب المطايا فقد أخفوها عنك !

ولما فعل ذلك ظهر له أثر الركوب في ثيابهم ، فراغ إلى مطاياهم في الظلام ، فما راعهم إلا قذفه شواء إحداها في النار أمامهم .

ومرة أخرى : سافر حجرف ذات مرة مع قومه ، ونفد زاد القوم ، ورآهم لا تشب لهم نار ، فأناخ الجمل الذي تركبه امرأته ونحره ونادى : اجتزروا هذا البعير ! . . ثم ساروا أياماً فرآهم لا يشبون ناراً ، فنحر لهم مطيته ونادى : اجتزروا مطيتي ! .

واجتزر القوم مطيته بعد بعير زوجته ، ونام القوم على ري وشبع ، ثم تشاوروا : من يعطي حجرف مطية يركبها هو وزوجته ؟ .

فكان جواب الجميع : أعطي حجرف مطيتي لينحرها لكم ؟ لا والله .

ثم سروا وتركوه في منزلهم ، فآوى وزوجته إلى ظل سرحـــة ، وأخذ يتصيد ببندقيته فرأى العجائب ، رأى دأباً (حنش) أسود أعمى يرتزّ في الصحراء حتى يكون كأنه عود فتهبط الطير عليه فيأكلها ! .

فعاد إلى زوجته التي أخذت تلومه على ما فعل ، ولعل لها كل الحق ، فانظر أو تصور منظر أسرة مقطوعة في الصحراء تحت شجرة يكاد ينفد كل ما عندها من ماء وطعام ، كل هذا بفعل رب الأسرة ، ولكن حجرف لا يعرف اليأس ولا تكل عزيمته ، فهو كريم ولا بد أن يفعل ما تمليه عليه مروءته ، فقال لزوجته :

يـرزقني رزَّاق الهوائش بجحـرها
لا خـايلتْ برقـاً ولا هِي بحايلهْ

أي أن الذي رزق هذه الدواب في هذا القفر ، وهي لا تخيل برقاً ولا تتحول عن أرضها سيرزقني كما رزقها .

ولما جن عليه وأهله الليل فإذا بمطايا شوارد تقف عليه ، وعليها متاع وطعام وماء ! فركب وركبت زوجته وأدرك القوم فخجلوا منه خجلاً شديداً !

حجرف والأطفال :

كان كرم حجرف كرماً طبيعياً لا صناعة فيه ولا مجاملة ، فذات مرة كان ينزل إحدى القرى إبّان صيف النخل ، فضافه أضياف وليس لديه ما يذبح ، فذهب فاشترى سمناً ، وعندما خرج من الدكان اعترضه طفل فقال : (دخيلك يا حجرف ، بس أغمس إصبعي في السمن) ! فما كان من حجرف إلا الموافقة ، فأسرع طفل آخر يطلب نفس الطلب ثم تكاثر الأطفال حتى لم يبق في الوعاء ما يلثق في إصبع ! فعاد إلى صاحب الدكان يخبره ، فقال له : إذهب إلى بيتك وأنا أحضر السمن . ومن المؤكد أن الأولاد كانوا سيعيدون ما فعلوا لو كان الذي يحمل السمن هو حجرف .

ويقول شيوخ البادية اليوم : ان حجرف الذويبي هو أول من سمي حجرف ، وان جميع من اسمه حجرف اليوم سمي باسمه أو باسم من سمي به .

ويكثر اسم حجرف اليوم في بادية الجزيرة .

وتقول امرأة : أنها مرت على شابات وهي حامل ، وما سمعت بحجرف قط ، فقالت الشابات ـ بطنز ـ هذي المرأة تدل بحملها ! والله لو حامل بحجرف !. فولدت ولداً سميته (حجرف) .

أما ابن مهيد : فقد كان من شيوخ عنزة ، فلما نزحت عنزة من الحجاز واستوطنت الشام نزل بنواحي الرَّقّة ، فكان إذا اشتد برد الشتاء وغطى الثلج الأرض يخرج عبيده في الليل يشبون النار ، وينادون (العشا) .

فسمي (مصوّت بالعشاء) .

من أقوالهم في الكرم :

من عادة كرمائهم أن يبنوا بيوتهم على مرأى من طريق الناس ليراه المسافر والمنقطع .

وهذا شاب بنى بيته على جال الطريق ابتغاء إكرام الضيوف ، ولما رأى أبوه كثرة ما ينفقه في ذلك ، لامه وعذله .

فقال الابن :

لـي بيـت عـلى جـال الـطريـق

ولـي رزق عـلى رب الـعـبـاد

فأجابه أبوه قائلاً :

تـربـيـت الـقـليـل يـزيـد فـيـه[1]

ولا يـبـقـى كـثـيـر عـلى الـنـفـاد

وأنفق أحدهم كل ما يملكه في وجوه الكرم حتى لم يبق له شيء فقال :

من الكـرم ضيّعت حتى عبـاتي

وحتى قعود من هل الذود شاريه

ومن عادة أهل الإبل عندهم أن يحلبوا منها لمن يمر بها ، ويَرَوْنَ ذلك واجباً :

ولذا يقول أحدهم :

يستأهل الخلفات شارب شليويح   اللّي على الطرقى يعرض لبنهن

وإذا اشتهر أحدهم بالكرم الفائق لا يكاد يعيبه بعده شيء ، فهم كما قال الشافعي رحمه الله :

يغـطي بالسمـاحـة كـل عيب   وكم عيب يغـطيـه السخـاء

ويقولون : الظفر منجى ، والكريم معان .

ويقولون : الكريم حبيب الله ، و : من أعطى موجوده قلّ منقوده .

الضيـافة :

للضيافة عند عرب الجزيرة قوانين وأعراف مرعية ، إذا شذ عنها الضيف أو المضيّف عد ذلك عليه منقودا .

---

(١) ربت الشيء يربته : نماه .

منها : أن يأتي الضيف من وجه البيت ، ثم ينادي بالصوت الشاهر ، وأن ينصا أقرب البيوت إليه ، وأن يجلس حيث يفرش له .

وعلى المُضيِّف ، ويسمونه (المعــزِّب) : أن يظهـر من البيت ، ويرحب بالضيف ، ويختار له أحسن مكان ويجلسه فيه، فإذا كان الوقت صيفاً أجلسه في أبرد مكان من البيت ، وإذا كان الوقت شتاء أجلسه في أدفأ مكان ، ثم يباشر بعمل القهوة ، فهي أول ما يقدم للضيف ، ثم يختار له خير قرى يقدر عليه ، فإذا كان دون الذبيحة وجب عليه المعذار .

فإذا لم يكرم المعزّب ضيفه فإن ذلك يعد عليه مسبّة ، وقد يهجوه الضيف ، وتسير بذلك الهجاء الركبان ويفضح .

وهذا رجل ضاف قوماً فقدموا له لبناً فقط ، وقال شاعرهم معتذراً :

الرز ما ناجده والحِيْـل خذ عنهـا مية دين
والدُّخْن عامين ما طِقّت بقُوعـه بالمسـاحي

فقال الضيف :

الدُّخن ما هـو قُلّيل عنـدكم ملي المواعين
لكن غالي وخابركم على الغالي شحاحي[1]
والحِيْل ما تنذبح تصبر على القسوات واللّين
تأخذ زمانين واليا عيـالها ملي المـراحي[2]

---

(۱) الياء للاشباع في شعرهم .

(۲) زمانين : عامين .

وعرب اليوم يعيبون أن يصبح الضيف على فراشه ، ومن أمثالهم في ذلك :

(الحيّة الرقطاء ولا الضيف المستصبح) !

ومن أنواع كرمهم اعطاء : المنائح ، والعرايا ، والرفايد ، والحذية ، والشبرة .

فأما المنائح : فهي : إعطاء ذات الحليب من لا حلال له ، يحلبها حتى (تغرز) أي يجف لبنها ثم يعيدها إلى صاحبها ، وهي شاة أو ناقة أو بقرة ، تكون منيحة ما دام لبنها .

أما العريّة فهي : نخلة أو عنبة أو نحوها ، تعطى غلتها من لا نخل له ، فإذا جدها انتهت علاقته بها إلّا أن تكون عرية دائمة .

أما الرفائد فهي : رؤوس من النعم والشاء تجمع لمن أصيب بجائحة في ماله فأصبح فقيراً ، أو قريب فقير يراد إغناؤه ، وقد تكون نقوداً أو حَبّاً ونحو ذلك ، وهم يرون أن الرفائد لا تغني فقيراً ، ولذا يقول شاعرهم :

ما عاضكم في زَيْد من جا مكانه
ولا عاض في المال المقيم الرفايد

غير أن أهل الغنى يرون هذا واجباً على الغني للفقير .

أما الحذية ، فهي : العطية من شيء أفاءه الله عليك ، كالغنيمة ، أو الهبة ، الجزلة . وفي هذا يقول أبو قلابة الهُذَلِيّ :

يئست من الحذية أُمّ عمروٍ   غداة إذ انتحوني بالجنابِ

أما الشبرة أو الشبارة فهي : ما يعطى لمن يحضر الصرام ،

فإذا مرَّ إنسان على قومٍ يجدون نخلاً ، قال : شَبِّرُوني ! فيعطونه شيئاً من ذلك الثمر .

والشبرة والحذية والعطية : كلها هبات من شيء معين على قدر ذلك الشيء وما تجود به نفس المالك .

ومن كرمهم أيضاً : النحلة والسماية .

فأما النحلة : فهي تعطى للمولود الجديد ، يقول الناحل : نحلت فلان ابن فلان ما في بطن ناقتي فلانة ، فيكون ما في بطن تلك الناقة لذلك المولود .

أما السماية ، فهي : قد يجيء الرجل إلى صديقه فيقول : لقد رزقني الله ولداً فسميته بك أي باسمك ، فيقوم المسمى به بإهداء أشياء إلى ذلك المولود وأمه ، وهذا شائع عند عرب الجنوب .

الشجاعة

من المسلم به والمتوارث من الخلف إلى السلف أن العرب من أشجع الأمم ، وهذه صفة من صفاتهم المشهورة فيهم ، غير أن الشجاعة قد تتأثر بالزمان والبيئة والحافز والقيادة ، وغيرها .

فمن تأثرها بالزمان : إن العرب كانت في الجاهلية تعيش قبائل مستقلة كل منها عن غيرها، حرة لا ضابط يضبطها ولا حاكم يحد من عبثها وعنفوانها ، فكانت تدافع عن ذلك الكيان وتحمي ديارها بنفسها وتأخذ ثأرها بيدها .

فلما جاء الإسلام حدّ من هذا الانفلات ونظَّم هذه الأمة ووحدها للدفاع عن الدين القويم ، وضمن لها ما كانت تدافع عنه بنفسها ، فحماها وحمى منها ، واقتصَّ لها واقتصَّ منها ، فصارت القَبائل قبيلة واحدة ، وإن كان هذا لم يدم طويلاً .

أما البيئة : فإن الحضري والقروي له أملاك وبيوت ثابتة وتجارة رائجة ، وهذا يجعله أكثر طلباً للاستقرار ، وخلوداً إلى السكينة وطلب الأمن ؛ لأن الحروب قد تخسره ما يملكه فإذا تزحزح عن مكانه خسر كل شيء ، بخلاف البدوي فإنه يغير على من يريد

الإغارة عليه ، فإذا هُزِمَ فما أسرع ما ينتقل من مكان الى آخر يحوش أمواله تمشي على الأرض ، ويحمل بيته على بعيره ! من هنا كان البدوي أشد مراساً وأكثر فوضى وأكثر تفكيراً في الإغارة على الآخرين !

أما الحافز : فهو عند البدوي الكسب ، والفخر ، والسيطرة على العدو .

فلما جاء الإسلام جعل الإيمان ومقاتلة الكفار والجهاد في سبيل الله من الأمور التي تجلب سعادة الدارين : فخر الدنيا ، وثواب الآخرة ، وأنَّ محاربة المسلم مسلماً مثله كفر وبغي .

لذا انطلقت القبائل العربية إلى محاربة الكفار ، وظهر منها قواد تمرسوا على القتال في الجاهلية ونفذوا تلك الدروس في الجهاد في سبيل الله .

فكان العربي البدوي يقاتل على حدود الصين وفي بخارى وسمرقند وفي الأندلس ، لا للغنيمة والفخر إنما لتكون كلمة الله هي العليا ، فقد غير الإسلام أخلاق ذلك البدوي أيما تغيير ، وهذّبه أيما تهذيب .

أما القيادة : فقد تمثلت لذلك البدوي في محمد ﷺ ، وأصحابه الشجعان .

فلما وثق بقيادته أتى بالعجائب ، ودك حصون أعتى دولتين في ذلك الحين تشبهان أمريكا وروسيا اليوم .

ولكن الدعوة كانت غير الدعوة ، والقيادة كانت غير القيادة ، والعربي كان مؤهلاً معنوياً وتعبوياً .

ولو كان عربي اليوم أتيح له ما أتيح لذلك العربي لما حدث ما يحدث اليوم من ذل العرب وامتهانهم من جميع أمم الكفر والطغيان ، حتى صار من الشائع في محافل كثيرة أن العربي ليس بتلك الشجاعة التي صور بها ، وأنه لا يعد أمام شجاعة بني صهيون !

فعربي اليوم يفتقد القيادة ويفتقد التعبئة النفسية ، يُنْأ به عن طرق الايمان وتبث فيه مبادىء الإلحاد والمبادىء الدخيلة على الإسلام .

عربي اليوم يقال له : قاتل في سبيل أرضك وأولادك ، ولا يقال له : قاتل في سبيل الله ، قاتل لتكون كلمة الله هي العليا .

يقال له : هُبَّ إلى نصرة العرب ، ولا يقال له : انصر الله ينصرك .

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِم ﴾[1] .

رجال اشتهروا بالشجاعة :

في العهد الجاهلي اشتهر عدد من أبطال العرب بالشجاعة والإقدام ، فدونت سيرهم وحوادثهم ، كعنترة بن شداد ، وعمرو بن كلثوم ، وعمرو بن مَعدِ يكَرِب الزُّبَيْدي ، وربيعة بن مُكَدَّم ، ودُرَيْد ابن الصِّمَّة ، وغيرهم كثير .

وتطالعنا السيرة النبوية بأسماء أبطال تبلغ شجاعتهم مبلغ الأساطير ، كعلي بن أبي طالب ، وحمزة بن عبد المطلب ـ رضي

---

(١) سورة الرعد : الآية « ١١ » .

الله عنهما ـ وعمرو بن عبد ودّ العامري ، والمقداد بن الأسود ، وغيرهم كثير .

فهل توقفت الجزيرة العربية عن إنجاب الأبطال ؟

خلال قرون عديدة مضت توقف التدوين عن هذه الجزيرة ، فضاع كثير من تأريخها ، ولكن من خلال ذلك الضباب الكثيف نلمح أبطالاً لا يقلون جرأة وإقداماً عن أسلافهم ، فهذا مالك بن رومي العسمي يسل سيفه في وسط مكة ويفرض أميرها بالقوة ، وليس معه إلاّ نفر قليل ، وذاك محمد أبو نمي ابن شريف مكة يتصدى لغارة متوجهة إلى مكة وهو ابن ـ ١٦ ـ سنة فيهزم الجمع ويدخل مكة رافعاً علم النصر .

وفي العصر الحديث نرى الملك عبد العزيز يستولي على الرياض ويقبض على حاكمها من قبل ابن رشيد ، وليس معه غير بضعة رجال !

أليست هذه بطولات خارقة ؟!

ونجد أسماء في البادية يشهد لها بالشجاعة والبطولة الفائقة ، من هذه الأسماء : غالية البقميّة : البطلة التي استطاعت أن توقف جيش محمد علي باشا وتوقع به أبلغ الخسائر ، في تربة .

والشيخ تركي بن حميد : شيخ قبيلة عتيبة في عهده ، كان فارساً مغواراً ، كان يترجل عن فرسه ويجالد الفرسان بسيفه وهو قائم .

وشليويح العطاوي : من الروقة من عتيبة ، وله أبيات ستأتي .

والشيخ محسن الفِرْم : شيخ بني علي من حرب .

وعودة أبو تابه : شيخ قبيلة الحويطان في القرن الماضي .

وكُريِّم العطيّات : أحد مشايخ بني عطية ، أحد المعمرين .

وأبرق نفيش من سبيع ، وابن شفلوت من قحطان ، ومن عنزة : الأخوان : عقاب وحجاب ، وفي بلي : ابن رفادة ، والمنقرة ، وهادي ابن قرملة من قحطان ، وغيرهم كثير .

وهم يسمون الشجاع ظَفِراً ، من الظفر بالشيء أي الحصول عليه ، وكأنهم يقصدون أن الشجاع يظفر بما يطلب ، ولذا يكثر في أقوالهم الظفر وجمعه ظفران .

ويصفون الظَفِرَ بأنه ذئب ، ولذا يقول التِّلَّفَيْه - يمدح المنقرة[1] :

ممدنا من جَيْدة اللِّي تخبرون وعلى اللُّبيدي مرسلين النطيرة[2]

ساقة عقيد كنّه الذيب مجنون يمد من ديره ويصبح بديره

ويقول مخلد القثامي - يعتذر لابن رشيد - :

الظفر يدمح لي ثلاثين زَلَّهْ[3] واللاّش ماني عن زراويه داري[4]

ولا يكادون يغيرون غارة إلاّ دوّنوها في شعرهم ، فهو سجلهم وديوانهم ، وهذا العبدلي ، يصف غارة لهم على البلادية ، فيقول :

وصَبَّحنا شُرَيق الشمس يوم المال في المِرْحَان

وَزَفّينا أمهات الباب مع ضين يباريها[5]

---

(١) الأدب الشعبي في الحجاز .

(٢) النطيرة : السابر . وجيدة ، واللبيدي : مكانان من شمال الحجاز . انظر معجم معالم الحجاز .

(٣) يدمح : يصفح . زلة : غلطة ، من الزلل .

(٤) اللاش : من لا خير فيه ، لا شيء . زراويه : غضبه أو منقوده .

(٥) المرحان : جمع مراح : مبيت السائمة . زفينا : زففنا أي سقنا .

نبي نَجْزَى زَحَم في غارة جت له على الرَّبْعَان[1]
نبي نجـزاه عن مفعـولـه الـلّي عقبـه فيـهـا

ويقول السّلمي :

عدوا في الهدة واحتاشوا لضّين والرعيان
وخلّوا دبشهم خـاليات منـاشيـره[2]
ولحقـوا معبَّد سُريةٍ تشرب الـدُّخـان
سريعين في كيل الفرنجي وتذخيـره[3]

ويقول التِّلَّفَيْه ، يذكر غارة للمناقرة على الجعافرة :

البـارحـة جينـا عليـهن مـراميس
وغـرنـا عـليـهـم غـارة هـلهـليـة[4]
غرنـا على وضـح تقـول البـرانيس[5]
كلش يـلالي وسـمهـا جـعفـريـة[6]
نـركض وضـو الملح مثـل المقابيس[7]
وعلى لقط يـا مـا دنت من منيـة[8]

---

(١) زحم : من شيوخ البلادية . الربعان : من مطير .
(٢) أخذوا المال وتركوا مكانه خالياً .
(٣) سربة : رهط . تشرب الدخان : تتقبل دخول دخان البارود ولا تتأفف منه لشجاعتها .
الفرنجي : البنادق . تذخيره : تعميره .
(٤) غرنا : أغرنا . هلهلية : لا مهلة فيها .
(٥) الوضح : الإبل البيض ، والبرانيس : لباس معروف .
(٦) كل منها ظاهر عليها وسم الجعافرة .
(٧) نجرى ، وضوء البارود كأنه الشهب .
(٨) لقط : مكان من شمال الحجاز جنوب شرقي تيماء .
ياما دنت من منية : كم من أدركته منيته هناك .

سلمان فرشناه خمسة ملابيس[١]

والعصر وَسَدْنا رأس العُبَيَّهْ[٢]

خمسة من النُّمران ما هم هلابيس[٣]

مثل القليب ليا انهدم ركن طَيَّة[٤]

ياسين يا ذيب النعاج المعابيس[٥]

حامي عَقَاب الجَيِّدهْ والرَّدِيَّة

من طاح منا تُقْل طايح من الكيس

وليا غدا هذا ظهر ذاك زَيِّهْ[٦]

لحقوا حَذَامَى ثم عادوا مفاليس[٧]

والبل قبال العين ما هي غبيَّهْ

لا أنتم غياب ولا مربط محابيس

ولا فيكم اللّي غايب كود غَيّه

بأثمانها ياما ركزنا من الكيس[٨]

من ذود أبو عسكر حماة الوَنيَّهْ[٩]

---

(١) سلمان رجل من المغيرين ، قتلوا بجواره خمسة من المغار عليهم .

(٢) العبية : فرس .

(٣) خمسة من قبيلة النمران ، ليسوا بجبناء .

(٤) كأنهم بئر انهدم طيها .

(٥) ياسين : كلمة تحسر وحنين ، ذيب النعاج : البطل الهمام شبهه بالذئب .

(٦) هذا يشبه قول السموأل :

اذا مات منا سَيِّدٌ قام سَيِّدٌ

قَؤُولٌ لما قال الكرامُ فَعُولُ

(٧) لحقوا غضاباً ، وعادوا بلا طائل .

(٨) أخذنا الابل ، وبعناها : وكم شرينا بأثمانها من أكياس الطعام .

(٩) هذه الإبل من إبل أبو عسكر البطل المغوار .

معنـــا اللُّهيب حمـود ومعنـــا فـواريس

يـــا خـــلطة الـــرحـــمـــن مـــلاّ بـــليَّـــهْ

ومعنـــا القريِّـــد يعـطي الهَـوْش تـدبيس

وزَوْدٍ على قسمـه حـذا لـه حَـذِيَـة[1]

اللي كسب واللي محصـــل نـــواميس

غيـر الهـطَيْعِي مفلسٍ قَـيْـد نِيَّـــهْ[2]

ويقول سُلَمِيٌّ آخر ـ يصف وقعة مهولة ـ :

أنا هَيَّض عليّ أمثال جتنـا ماكمـا هنَّهْ

بـدعها واحـد في قريتـه يتبع سـوانيها

مُريّح في الغريف ولا بدا في عالي القُنَّهْ

ولا وايق مخافه مع سبور القوم باديها

ولا عانق جَهاجِيل الرَّكَايب يوم يسـرنَّهْ

سرتْ من ليلها ما تصبح إلّا عند أهاليها

وقد ذكرت هذه القصيدة كاملة في ما يلحق .

ويفتخر شجعانهم بشجاعتهم ، فإذا كان فخرهم صحيحاً لم يعترض عليهم معترض أو ناقد ، أما إذا كان ادعاؤه غير صحيح فتجدهم يتصدون له بالنقد والتفنيد .

وهذا شليويح العطاوي يقول :

يا ناشدٍ عنِّي تَرانِي شليـويح ضاري على قطع الخرائم عزومي[3]

---

(1) هذا البطل أخذ حذية عـلاوة على قسمه معنا .

(2) الهطيعي : رجل دخل المعركة وجبن فلم يحصل شيئاً .

(3) يا سائل عني فإني شليويح ، متعود على قطع الفيافي الخالية بعزم الشجعان .

ويقول آخر :

فَكّيتْ بنت العَـوْد والـقيـد مـشـدود

وسعيـد شـاهـد والخلايق شهـودي[1]

ويمدح العبدلي عقيد قومه ، فيقول[2] :

أنـا بامـدح لكم لحيـة مهنّـا عقيـد القـوم حمـاي التـوالي

معـه رُومٌ قَصِيـرة ويتـشَنّـى ثَنَتْ من فوق الأروام الطوالي

وهذه نقاط مختصرة استشهدنا بها على خُلُق من أخلاقهم ، ولو استقضينا أقوالهم في هذا الصدد لاحتجنا إلى مجلد ضخم .

---

(١) فككت وثاق بنت الشيخ (العود) الذي شد يديها به الأعداء ، وسعيد يشهد لي بذلك ، والناس كذلك شهود .

(٢) عبادلة مطير .

التَعاوُن وَإغَاثَة اللهفَان

لهم في التعاون ضروب عجيبة سبقوا فيها نظام التعاونيات المعروفة اليوم ، وهو خلق كان سائداً في الجاهلية ، فجاء الاسلام فأقر الجانب الخير منه ، فقال تعالى : ﴿ **وَتَعَاوَنُوا على البِرِّ والتَّقْوَى ولا تَعَاوَنُوا على الإِثْمِ والعُدْوَانْ** ﴾[1] .

ويعود أساس التعاون بين البدو إلى كون القبيلة كانت أسرة واحدة ثم كبرت فتفرعت منها عشائر وحمائل مع بقاء أواصر التراحم والشعور بالجذر الواحد .

فكان ما يضر الفرد تجزع منه القبيلة ويؤلمها ، ومن هنا صار التعاون خُلقاً مغروساً في نفوسهم ، ومن ضروب التعاون بينهم :

إذا غاب أحدهم أو مرض قاموا بجميع شؤونه : كسقية حلاله وحفظه أو سقي زرعه وحمايته ، وجلب الطعام لأهله وصرام زرعه أو نخله .

واذا فقر أحدهم جمعوا له الرفايد حتى يصير ذا مال يظعن معهم .

---

(١) سورة المائدة : الآية «٢» .

ويصل بهم التعاون إلى تزويج غير المؤهلين من أبنائهم حفاظاً على الأعراض وطلباً لتكاثر القبيلة.

ومن الأمور التعاونية عندهم : إجماعهم على شيخ يجمع شملهم ويأخذ الحق من قويهم لضعيفهم ، وغالباً تكون المشيخة فيهم وراثية ، ولكن نقصد بإجماعهم على أول رجل في البيت ، فقد يكون إجماعهم عليه لشجاعته وقيادة القبيلة من ظفر إلى ظفر ، أو لكرمه وسخائه ، أو لحلمه ورجاحة عقله ، أو لكل المزايا المتقدمة .

ومن أنواع تعاونهم : اجتماعهم لحل المنازعات والمشاكل بين الأفراد والجماعات .

فقد يحدث نزاع بين فردين أو جماعتين حتى تكاد تحدث فتنة ، فيسارع وجوههم وأهل الخير منهم إلى التنادي والتدخل بين المتنازعين ، ويحاولون ـ وغالباً ما ينجحون ـ حل ما حصل ، ويتكبد بعضهم خسارة من ماله لإنهاء الأمر.

وما قصة هرم بن سنان عنا ببعيد ، ومثل هرم في عرب الجزيرة موجود ، وهناك أناس اليوم يتحملون الدِّيات لفك المساجين وإعادتهم إلى أسرهم .

أما إذا كان المتنازعان زوجين فقد يتحملون للمرأة ما يرضيها على زوجها ، جلباً للألفة والوئام بين الحليلين .

من أقوالهم في التعاون :

ولكي يرسخوا حب التعاون في عامة الناس ، وخاصة النشء ابتكروا أقوالاً وأمثالاً سهلة الحفظ ظاهرة المعنى ، كقولهم :

«قوم تعاونت ما غلبت» ، وقولهم : «يدمع يد معزَّة» ،

وقولهم : «يد واحدة ما تصفق» ، «واللي ماله شوير يطيح في البير» ، ويقولون : «عاون أخوك ولو بالنداء» !

أي لو اعتدى عليه ولم تستطع أن تقاتل معه ، فناد من يساعده وكأنهم يعنون قول الشاعر :

وقـل أدع وأدعـو إنَّ أنـدي   لصَـوتٍ أنْ ينـادِي داعيـانِ

وكي يقنعوا الإنسان أن يرضى بمن معه من الناس كأخيه أو ابن عمه ، يقولون : «خشمك منك ولو كان أفطس» ، وهو مثل عربي قديم مع تغيير اللفظ .

ولتحذير المرء من الانفراد عن قومه ، يقولون له : «الشاة المتطرفة يأكلها الذيب» ـ ، وحتى لا يجد الانسان عذراً بأنه غير قادر على المعاونة ، يقولون له : «أحذف أو قرّب مداق» ، ومعنى هذا إنك إذا لم تستطع الأمور المهمة فانك تستطيع أن تساعد بأقل من ذلك ، ولا عذر لك .

ويروون ـ للأبناء ـ قصة المهلب بن أبي صفرة ، دون أن يعرفوا حقيقتها ولا زمنها ، فيقولون :

كان لرجلٍ عدد من الأبناء ، فلما حضرته الوفاة طلب من كل منهم أن يحضر عوداً ، فلما جمعوا أعواداً على عددهم ، قال : اجعلوها حزمة واحدة ، ففعلوا ، فقال : جربوا أيكم يكسرها ، فحاولوا كلهم فلم يستطيعوا ، فقـال : فليأخـذ كل منكم عـوده فليكسره ، ففعلوا ، فقال : أرأيتم ؟ عندما كانت الأعواد مجتمعة لم تستطيعوا كسرها ، فلما تفرقت كسرتموها واحداً واحداً ، فكذلكم أنتم ، ما دمتم مجتمعين لا يستطيع أحد أن ينال منكم ، وإذا تفرقتم غلبكم الناس .

أما إغاثة اللهفان ، فهي خلق عربي قديم ، فلما جاء الإسلام ثَبَّته وحثَّ عليه .

فقال ﷺ : كان الله في عون العبد ما كان في عون أخيه المسلم .

وقال : من نفّس عن مُعَسَّرٍ كربة من كُرَبِ الدنيا ، نفَّس الله عنه كربة من كُرَبِ يوم القيامة .

التعفف عن الدنايا

العربي أبي النفس شهم الخليقة ، يتعفف عن الدنايا ويترفع عن الصغائر .

ولم يشذ عربي الصحراء اليوم عن أسلافه ، بل عمق عناصر جاء الإسلام بالحث عليها .

ولذا تجدهم يحافظون على حرمة الجار ، ويشددون في الن على المحارم .

ولهم في ذلك أسلوب تربوي وتوجيهي يخصون به الشباب ، كثيراً ما يتركز في نظرات الاستنكار ، وكلمات الاستهجان ، تُوجه إلى من لا يحافظ على الشرف ولا يرفع نفسه عما يشين .

ولذا سنُّوا قوانين لحماية العرض يعترفون بها وينفذونها ، ومن لا ينفذها تنفذ فيه بالقوة .

من ذلكم تحكيم قضاة العرف[1] ، وحكم العرف بما توارثوا

---

(١) كان هذا سائداً في الجزيرة قبل هذا العهد ، أما اليوم فالكل يخضع لحكم الشرع .

أو سنوا من قوانين أملتها عليهم حاجة الناس إلى الأمن وحل المشاكل .

من هذه القوانين :

١ ـ إذا تجرأ فاسق فاعتدى على مصونة فأسفر وجهها أو عَرَّى شيئاً من جسمها ، فإن حكمه قطع تلك اليد التي امتدت على هذه المرأة .

هذا ما يحكم به قاضي العرف ، أما التنفيذ فإنه يخضع لعدة عوامل ، منها : قوة صاحب الحق وضعفه ، وقوة المحكوم عليه وضعفه ، فإذا أَمِنَ جانب المحكوم له فإن المحكوم عليه يساوم في الحكم بأن يشتري اليد بالتراضي ، وهذا ما يكون غالباً ، إذ أن أحداً لن يمد يده طائعاً للقطع .

أما إذا رفض المحكوم له فإن تنفيذ الحكم يتوقف على مقدرته على تنفيذه قهراً .

٢ ـ واطيء الفراش ، ويعنون به من يدخل بيت رجل في غيابه دخول ريبة .

وهذا حكمه عند عدد من القبائل وخاصة (حرب) أن يضرَّب على أم رأسه بالسيف ضربتين على شكل العراقي ، ويكون الضرب خفيفاً بحيث يمزق الجلد ولا يضر العظم ، ويبقى أثره شاهداً على فعله ما دام حياً ، ويضرب بالسيف ضربة على أحد خديه وسماً له يعرف به ، غير أن هذه الضربة كثيراً ما يتدخل فيها المصلحون ،

فيدفع الجاني ثمنها من ماله أو مال عائلته .

٣ ـ مُصَيِّح المرأة : ويعني ذلك أن يتعرض لها بسوء من القول أو الإشارة الدالة على طلب السوء ، فعندئذ تصيح (يا لفلان) أو يا للعار ، أو يا للضيم ، فيبادر القوم لنجدتها ، فإن أُدْرِكَ ضُرِبَ وأهين ، وإن لم يدرك كان عليه ما يؤديه لأهل الصائحة رضاً لهم ، وكان عند حرب يقدر بمبلغ (٤٠٠) ريالاً فقط ، وذلك عندما كان هذا المبلغ يعادل عشرات الألوف على واقع اليوم .

ومن أمثالهم في ذلك :

ضارب القَوَّاس ومصيِّح بنت الناس عليه غُرْم أربع مية ريال .

والقواس : خادم الأمير الذي يحضر المطلوب بالقوة .

وهذا رجل جاور جاراً كريماً عفيفاً وفياً للجار ، وكان الرجل النازل كثير الغياب عن بيته ، وكان الرجل الكريم شديد الوفاء لجاره وباراً بأهله ، فلا يذبح لضيوفه حتى يرسل لامرأة جاره (حصة جزلة) ، فرأى الرجل النازل كثر ثناء زوجته على جارهم ، فدخل الشك قلبه ، وقال : ما أكثرت من مدحه الآّ لما بينك وبينه ، فلما رأت ذلك أخرجت جونة من خميلها ونثرت ما فيها ، وكلها عظام بعدد ما كان يرسل إليها جارها ! وقالت : لهذا مدحته .

وسمع ذلك الكريم فأنشد :

يا الخايب أنا ما تعطرت بارواح   يكون بهار الهيل والزعفران
وقطيرتي ما أكثر عليها التِّرداد   وإن غاب واليها عليها الأمان

وقال آخر :

لي جارة تنكـر ثيابي كلابهـا وتنبت زهور العشب من دون بيتها

وهذا شبيه بقول هلال بن خثعم :

وإني لعف عن زيـارة جَارتي وإني لمشنـوء إلى اغتيـابهـا
إذا غاب عنها بعلها لم أكن لها زَؤُوراً ولم تأنس إليّ كلابهـا

النقـد والتوجيـه

لهم في النقد باع رهي ، وقلما يسلم من نقدهم الاّ من أوتي الكمال (والكمال لله وحده) .

فـإذا رأوا ما يعاب أو كما يقولون (الشد مائل) تهامسوا أو جهروا ـ حسب المقام ـ بما يظهر أنهم لا يرضون الأمور غير الصحيحة،ولهم في ذلك أمثال وأشعار تشهد لهم بموهبة فائقة في النقد .

فهذه امرأة ابن هذّال (رأته يدخن ، فكانت فيما يبدو تكره التدخين ، فقالت :

يا شارب الدخان شاربك لا طال وان طال لازم شاربه يقصرونه

فسمعها ابن هذّال ، فقال : (ويش تقولين ؟ !) ، فخافت بأسه فقالت : أقول :

شَـرَّابـة الـدخـان فيهم سعـة بـال
واللي طـويـلٍ شـاربـه يقصـرونـه
وكم يشـرب الدخـان مثـل ابن هـذّال
الـلـي يـصـرّه فـي مـثـانـي ردونـه

وغزا قوم ومعهم شاب طري العود ، فلما أنكفوا جاءت أم ذلك الشاب تسأل عقيد القوم عن سيرة ابنها في تلك الغزوة لعلها تسمع منه مدحاً أو إطراء .

فقال الشيخ :

يضـرب سمين الـظل قـدام ربعـه
وبحـالـه يـا بنت الـرجـال يـروف

وليـا مـا بقي في القـربـة الآ صُـوُالـه
شـربـهـا وخلّى الغـانمـين وقـوف

وهذا منتهى النقد والذم .

وجاء رجل فرأى غداء امرأته فاستكثره ، فأنشدت :

أنـا جَعُـوب أكبّـر القرص بـالحَيْل
واختـل عود الـلاش يوم انتـظر فيه[1]

ومن أمثالهم النقدية :

* بغيتك يا عبد المعين تعين ، لقيت يا عبد المعين تنعان .

* أزريت في أبوي ، جاني أبوي ينقل أبوه !

* ان كـان ماشـور الفتى من جلامـه
فـاشـوار خلق الله تـدلـه وتغـويـه[2]

أي إذا لم يكن للإنسان فكر يفهم به الأمور ، فالمستشارون قد يذهبون به مذاهب شتى .

---

(١) جعوب ، وبحوم ، ومهروش : جشع . بالحيل : جداً .
اللاش : من لا خير فيه ، وأصلها لا شيء ، فأدخلوا عليها (أل) التعريف ثم حذفوا الياء ، فأصبحت صفة لمن لا فائدة ترجى منه ، ولذا يقول مخلد القثامي : واللاش ماني عن زراويه داري .

(٢) جلامه : رأسه ، عقله .

* قال أطرد وطارد ، قال : امحك مغصوب وطراده .
* لَقَّمْتُها العنان فلقمت يدي ![1] .
* المال مال أبونا ، والناس طرّدونا .
* أعور ويتنقور .
* الدرب يسار ![2] .
* من كثر هذره ، قل قدره .

وقالت امرأة تلوم زوجها :

ما قلت لك خنّ نشرب الرايب يوم الرخم غايب يا خليفة ماش ! ؟

جاه أبو دنقور خش في القنبور شربه وما خلاش !

وهذا القول على بساطته وعامية ألفاظه يشبه قول دريد بن الصمّة :

أمــرتُـهُـم أمــري بـمـنــعــرج الـلوى
فلم يستبينـوا الرشـد إلّا ضحى الغد

وتزوجت إحداهن رجلاً عن عشق ، رغم لوم قومها ، ولكنها عافته بعد ذلك ، فقالت :

شمت لــك من لابتي يــوم يلومــوني
داخـل في خـاطـري أخـذك عشــاقه

---

(١) يقال لمن تبصره بالأمور ، فيستعمل ارشادك ضده .

(٢) هذا كقول الشاعر :

أوردها سعد وسعد مشتمل ما هكذا يسعد تورد الإبل

يـا شبيـه اللي على الـرِّمَّـهْ يحـومي

أبــرق الجنحــان رجلينــه دقــاقــه[1]

لـو بغيت الـطيب مـا تقـدر تقـومي[2]

مثل حبل النكث مـا يصلح علاقـه[3]

---

(١) تصفه بطائر الرخم ، وهو الأنوق .

(٢) لا تستطيع فعل الطيبين ولو رغبته .

(٣) كالحبل البالي المنكوث لا يصلح لتعليق الأشياء أو حزمها .

الحمية وحفظ الذمار

الحمية خلق من أخلاق العربي قديم ، وغريزة مغروزة فيهم ، وعنصر من عناصر تماسك القبيلة ، والذود عن حياضها وحماية مصالحها .

وبهذه الحمية حافظت القبيلة على تشكيلها كوحدة بشرية شبه مستقلة عما حولها ، وحمت ديارها حين كانت الحماية للسيف وحده ، والبدوي لا يرضى أن تمس قومه بسوء من القول أو الفعل ، وينفعل لذلك ويبذل دمه لرد كرامة أي فرد من القبيلة لو اعتدى عليه أو أهين .

وقد يفزع البدوي لنجدة شخص لا يعرفه ولم يره لأنه صاح (يا لفلان) وسمَّى قبيلته ، فإذا هي قبيلة هذا الذي فزع لينجده .

ويروون ـ في هذا الصدد ـ طرفة تقول : حج عربي من مصر ، وأثناء الحج اعتدي على رجل فضرب ، فصاح المضروب : (يا لشَبَابَة) ! وعندما عاد هذا الحاج إلى بلده قص ما سمع على القوم ، فقالوا له : إنك من شبابة ، فكيف لم تفزع لابن عمك ! ؟

فحج هذا الحاج في العام التالي لينتصف لابن عمه (أي

حميه) فأشرف من أعلى جبل عرفات ونادى : (ياللي شبّبت العام شبّب ها السنة) ![1] .

وهم ينفذون الحمية على ظاهر الحديث : (أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً) .

فلما جاء الإسلام ذم الحمية العمياء ، وسماها حمية الجاهلية ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ **إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِم الحَمِيَّة حَمِيَّة الجَاهِلِيَّة** ﴾[2] .

وعندما أراد المنافقون استحماء الأنصار على المهاجرين ، قال ﷺ : دعوها « إنها منتنة ». ولكن الإسلام مع هذا لم يَدْعُ إلى تفكك العشيرة ولا أمر بترك التَّوادّ والتراحم بين الأقارب ، ولكن أبدل تلك الحمية العمياء بصلة الرحم ، وخص ذوي القربى بالمعروف ، فقال تعالى : ﴿ **وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَذِي القُرْبَى** ﴾[3] و ﴿ **وَأَتَى المَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي القُرْبَى واليَتَامَى والمَسَاكِينَ** ﴾[4] .

وقال رسول الله ﷺ : (الأقربون أولى بالمعروف) .

وأوصى بصلة الرَّحم ، فقال ما معناه : إنَّ الرَّحم تعلقت بالعرش ، وقالت : (هذا مقام العائذ بك من القطيعة ، فقال الرب جلّ وعلا : ألا ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك) .

غير أن صلة الرحم عند البدوي بقيت رمزاً دينياً يوصي العالم بها الجاهل .

---

(١) شبابة مجموعة كبيرة من قبائل الجزيرة . انظر : معجم قبائل الحجاز .

(٢) سورة الفتح : الآية «٢٦» .

(٣) سورة البقرة : الآية «٨٣» .

(٤) سورة البقرة : الآية «١٧٧» .

وظلت الحمية الغريزية تجري في دمه وعروقه ، ولا يكاد يصغي إلى نصح عنها .

ومن أغرب ما يفعلون في ذلك أنه لو قتل زيد رجلاً من قبيلة عمرو ، وفر زيد ، ثم صدف أن عمـراً وجد رجلاً من قبيلة زيد لقتله بقتل ذلك الذي هو من قبيلته ! .

فعمرو ليس ولي المقتول ، ومع هذا يقتص حَمِيّة لقومه ، والرجل الذي قتله عمرو ليس جانياً وربما لا يعلم من الأمر شيئاً ، ولذا قتله عمرو فدفع ثمن جريمة لم يرتكبها .

وهذه من أبشع صور حمية الجاهلية .

ومن هذه القاعدة أنه إذا شبّت نار الحرب بين فخذ من أفخاذ قبيلة ما وفخذ من أفخاذ قبيلة أخرى ، كانت كل هذه القبيلة في حرب مع كل القبيلة الأخرى ، ولو اعتدى على كرامة أتفه رجل في قبيلة كبيرة ، أعتبر اعتداء على كل أفراد تلك القبيلة حتى يسوى الأمر .

أخذ الثأر

نحن نتحدث هنا عن عرب الجزيرة ، وإلى منتصف القرن الفائت ، كان في عرفهم أن أولياء المقتول ـ وهم كل القبيلة ـ لا يغسل عارهم إلاّ أخذ الثأر ، وذلك بقتل القاتل أو أحد أبناء عشيرته ، ولكي تتاح فرصة للسلام بين عشيرة القاتـل وعشيرة المقتول ، يلجأ القاتل إلى الفرار ، ويزبن عشيرة أخرى ، أو يهاجر إلى مصر من الأمصار ، وعندها تحلف قبيلته أنها لا تعرف عنه شيئاً ، وتتوجه إلى أولياء المقتول بأخذ الدية ، وتحشد لهذا الطلب أعيان الناحية وأهل الرفعة والشرف ، فيقبل أصحاب القتيل بالدية بعد لأي .

وكما قال عمر بن مُكَدَّم : القتل عندي في الوغى شريعة .

فكان القتل عندهم أو بالأصح عند شجعانهم وفوارسهم من الأمور التي لا يتحرجون منها ولا يتذممون فيها !

وفي العصر القريب قيل أن قتلى عودة أبو تايه بلغوا سبعين رجلاً[1] .

---

(١) عودة أبو تايه : أحد شيوخ الحويطات الشجعان .

وأن فيصلاً الدويش لم يستطيع أن يحصي من قتل بيده[1] .

غير أن الله منّ على عرب الجزيرة في هذا العهد بالأمن وتنفيذ حكم الشرع ، فلم يعد أولياء القتيل في حاجة إلى تنفيذ حكم الإعدام فيمن قتل وليهم ، إنما تتولى ذلك الدولة ، فإذا ثبتت جريمته كان أهل القتيل بالخيار ، إما الدية أو القصاص .

وهذا هو حكم الإسلام الذي أنزل الله فيه قوله تعالى : ﴿ **وَلَكُمْ فِيْ القِصَاصْ حَيَاةٌ يا أولِي الأَلْبَابْ** ﴾[2] .

أما حفظ الذمار : فإن البدوي يبذل روحه ودمه دون ما يمس شرفه أو شرف قبيلته ، ويحمي من يلوذ به ويستميت في الدفاع عن حقوق القبيلة مهما صغرت ، فأصغر أبناء القبيلة يعتبر جندياً مجنداً للدفاع عن كل شبر من أرضها أو رأس من ماشيتها أو مال وعرض من لجأ إلى قبيلته محتمياً بها .

وكي تصمد القبيلة في منازلها وتحمي أرضها وعرضها ، تجدها تلجأ إلى ما تلجأ إليه الدول اليوم ، فتبرم الحلف مع قبائل أخرى ، وتحاول تحسين علاقاتها مع جيرانها بالكف عما يؤذي هؤلاء الجيران ، والتصاهر مع شيوخ القبائل الأخرى ، والتداعي إلى الولائم وتبادل الزيارات ، وإذا لجأ إليها فاتك أسرعت إلى ضمه إلى احدى عشائرها حليفاً ، والحلف عندهم كالنسب ، وذلك للاستفادة من هذا المغوار إذا شبت الحرب .

---

(١) فيصل الدويش : شيخ قبيلة مطير ، عاصر الملك عبد العزيز ، وله تاريخ حافل .
(٢) سورة البقرة : الآية «١٧٩» .

وعقلاؤهم وحلماؤهم لا يرغبون في إسعار نيران الحروب ولا يثيرون الفتن ، ولكن إذا حدث مثل هذا لا يجدون محيصاً من خوضها ، وقد صور هذا الوضع دريد بن الصمّة ، حين قال :

وما أنا إلّا من غَزيّة إنْ غوتْ غويتُ وإنْ ترشد غَزِيَّة أرشد

الغيرة على العرض

الغيرة من صفات العرب المغروسة فيهم من عهد الجاهلية ويطالعنا الحديث الذي أجراه ذلك الأعرابي مع رسول الله ﷺ ، إذ قال ما معناه : (والله لو وجدت عند امرأتي رجلاً لضربته بالسيف) .

فلما انصرف قال رسول الله ﷺ : والله إنني لأشد غيرة منه !

وجيء إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه برجل متهم بقتل رجل ، فلما سأله عمر عن الخبر ، قال : إنما ضربت فخذَيّ إمرأتي بالسيف ، فإن كان بينهما رجل فقد قتلته ! .

فلما كشف الأمر فإذا بالسيف قد بتر فخذَيّ المرأة وقطع ظهر الرجل بينهما ! .

والبدوي شديد الغيرة على أهله وحريمه ، حتى أن أكثرهم يرى أن الزانية ليس لها إلاّ القتل ، ثيباً كانت أم بكراً .

وهذا أكسب نساءهم العفاف والترفع ، ويمتدحون المرأة شديدة الحرص على نفسها ، ويعيبون المرأة (المهرجانية) وهي التي تكثر من مبادلة الرجال الأحاديث الودية ! .

وهذا رجل في البادية نزلت أخته المدينة ، وفي أحد المجالس

عيّره أحدهم بأن سيرتها هناك تثلم شرفه ، فهجدها بليل وقتلها دون أن يدري أحد بقدومه إلى تلك المدينة .

ولهم قصص في هذا المنحى تدل على غيرتهم وعفاف نسائهم منها : أنّ رجلاً أخذ يشبب بإحدى عقائلهم فشكوه إلى ذويه فلم يمنعه أحد عن الفساد فقتله أهل المرأة ، وثارت فتنة وحرب بين العشيرتين ذهب فيها رجال كثيرون .

وشبب أحدهم بأمرأة مكنياً ، فقال :

جـاني بليمـونتين الله بنـو الخير يجـزاه
وهيـه دوا عافيـة مـا هي دوا واحـد مغـوّا

فردت عليه المرأة قائلة :

ياللي تبي لك دوا ترى الدوا راعيـه ما اعـطاه
راعيـه مـا اعـطاه ميـر اللّي معـه شـرّ يتكـوّى
وان كان عجزان عن لمّ الحـطب حنا خـدمناه
نلم من صبـح لين المال في المـرحان ضَـوَّى

وضاف رجل رجلاً آخر ، فرأى المضيّف ينظر إلى احدى نسائه ، فأخذ يحدثه عن مزرعته التي تحيط بالقصر ، وكيف أنه لا يدرك جمالها ويحيط باتساعها إلاّ من أشرف من أعلى القصر ، ثم نادى عبداً له وطلب منه أن يصعد بالضيف العزيز ليريه المزرعة من السطح ، ثم أوعز إلى آخر بأن يتبعهما فإذا أشرف الضيف من إحدى الشرفات يلكزه لكزة تهوى به من أعلى القصر .

ويعتبرون مس شرف المرأة عاراً ما بعده عار ، وفي هذا يقولون : (النار ولا العار) .

وأخطأت اعرابية فرأى زوجها غرتها ، فأرادت أن تتأكد ، هل رآها أم لا ؟ .

فقالت له : ناقتنا ولدت وجابت قعود[١] ، فسمّيته : ما أدري شفت وإلاّ ما شفت ؟ ! فقال لها : بل أنا سمّيته : شفت وعفت !

فقالت : لو وافقتني سميناه : توبة غير هذي النوبة ! . فقال : من له عادة ما يخلّيها ، يرفع رجله ويوطيها ![٢] .

والإسلام رسخ هذه الصفة فيهم ، فاعتبر الراضي بالفاحشة في أهله ديّوثاً .

وحدّ للزاني المحصن الرجم حتى الموت ، وغير المحصن الجلد .

وكيلا تستغل هذه الحدود فتوقع على الأبرياء بالتهم الزائفة وتتعرض أعراض المسلمين للعبث وتشيع فيهم الفاحشة ، جعَل إثبات هذه المسألة من أصعب المسائل ، فالمتهم بالخطيئة يجب أن يرد عليه أربعة شهود مقبولي الشهادة بـأنهم رأوا (الميل في المكحلة) .

فإذا لم يثبتوا ذلك حد المدعي بحد قذف المحصنات ، أو أن يعترف المتهم بذلك طوعاً ورغبة .

أما إذا اتهم رجل امرأته ، وأنكرت هي التهمة فإن الأمر أصبح بين شريكين أحدهما صادق والآخر كاذب ، ولن تصلح العشرة بين مُتَّهِم ومُتَّهَم لم يفصل بينهما بحكم ، فإذا لم يكن للرجل شهود على القاعدة المتقدمة ، وجبت بينهما الملاعنة ثم يفرق الحاكم

---

(١) القعود : ابن الناقة الذكر .

(٢) يرفعها ويضعها ، وهذه الجملة لمجرد الاتباع .

بينهما . وصفة الملاعنة ، مبسوطة في كتب الفقه ، وليس هذا كتاب فقه .

إنما كما قال الشاعر :

(والشيء بالشيء يذكر) .

فالخبر يوجب ايراد المثل ، وهكذا ترى الإسلام حريصاً على أعراض المسلمين ، مقراً حرص الرجل على أهله وحمايتهم .

وهذا من تثبيت الإسلام للغيرة ودرء عبث المغرضين وأهل الأهواء .

ومن أقوالهم في تغاضي الرجل عن أهل بيته : (قالت الرخمة أنا خير من ثلاثة : آخذ الزانية وهو خابرها ، وشايف على المرة وساترها ، وناصي قالة ما يفسرها)[1] .

وقولهم : (الفراش اللّي يطأه اثنين تعمى منه العين) .

ويقصد بالفراش هنا فراش الزوجية .

ومن الغيرة لديهم عدم تزويج الأجنبي، والأجنبي في عرفهم أي شخص من غير قبيلتهم ، وحتى بين أفراد العشيرة الواحدة يجري التنافس ويقدم ابن العم على حجر بنت عمه باعتباره الأولى بها ، فإذا لم تتزوجه ، قال : (محجورة ، والله يا من يتزوجها إنه عيد حجبتها) ! .

أي أنه سيقتل من يتزوج بنت عمه ليلة الدخلة .

والشرع لا يقر الحجر ولا إجبار المرأة على من لا تريد ، غير أن البوادي في فلواتهم لا يعلمون حكم الشرع في ذلك ، وإذا عرفوه فقليلاً ما يتقيدون به .

---

(١) قالة : قضية .

وقد تقدم معنا في فصل (التعفف عن الدنايا) كيفية الحكم على من يطأ فراش الزوجية أو يومىء إلى امرأة بسوء .

وكنتيجة من نتائج محافظتهم على العرض فإنهم يتخيرون ذوات الاعراق الطيبة ، والمعروف فيها الحصانة والشرف ، وفي أهلها الشجاعة والكرم ، وفي هذا يقولون : (أول إحسانك الى إبنك تعريب أصله) ؛ أي اختيار ذات الأصل المعربة .

ويقول قائلهم :

(عرّب وليدك عرّبه ، والنار من شبّابها)

وفي مثل هذا يقول المهلب بن أبي صفرة لأبنائه :

وأوَّلُ إحساني إليكم تخيري ... لطيّبة الأعراق بادٍ حصانها

حسن الجوار والرفقة

يعد حسن الجوار وحفظ الجار من خصال البدوي التي يعتز بها ويدافع عنها بكل قوة أو جاه أو سلطان .

ولهم في الجيرة قوانين قد تختلف من قطر إلى آخر ، غير أن جماعها حفظ حقوق الجار والذود عنه وإكرامه .

ومن قوانينهم في ذلك : إذا جاورهم جار فأول إكرامه أن يقودون إليه قويدة (رأس من الغنم) فيقوم هو بذبحه وطبخه ، ويجتمع رجال الحي على هذه الوليمة ، وهناك يتسامرون ويأخذ الحديث مآخذ شتى ، وفيه يعرف بعضهم أخلاق وصفات البعض الآخر .

ثم يقوم الجار برد (الواجب) وذلك أن يقود إلى بيت عميد الحي قويدة ، ويعمل بها كما عمل بسابقتها .

وفي هذه المدة يختار الجار قطيره ، فينقل بيته إلى جوار بيت القطير ثم يمد حبلاً من طنب بيته إلى طنب قطيره[1] فيربطه فيه ، فيسمى (قطير الطُّنْب) ، ويكون هذا جاره الخاص الذي يحميه من

---

(١) هذا عند بعضهم .

أي أذى قد يصيبه من بعض الحي ، ويعتبر المجاور جاراً عاماً لجميع العشيرة أو الحي .

ولا شك أن هذا نتيجة تجارب موغلة في القدم ، فأولاً تلك الولائم يدرسون بها بعضهم بعضاً فيعرف الحي أي رجل جاورهم ، ويعرف الجار أيهم يختار لطنبه .

ثم يأتي اختيار الجار لجار خاص ، لأن الجيران قد يعتدي بعضهم على بعض ، والحي عشيرة واحدة ، والجار من عشيرة أخرى ، فلا بد له من سند في الحي .

وقد مدّوا هذا العرف إلى موتاهم ، فصاروا إذا مات لهم ميت في أرض غربة ودفنوه في مقبرة عشيرة أخرى مدّوا من قبره إلى القبر المجاور حبلاً ليكون قطيره الخاص .

وذلك ـ بزعمهم ـ أن الميت المدفون في مقبرة أجنبية يتعاون عليه أهل المقبرة فيرتحلونه ! فيردون به المياه ويحملون عليه القرب والحطب ونحو ذلك .

وما علم هؤلاء الجهلة أن الإنسان إذا مات انقطع عن كل عمل إلى يوم القيامة .

ومن طرائفهم : أنَّ رجلاً دَفَنَ أباه في مقبرة أجنبية ، ثم جاء يزوره فإذا هو يسمع هاتفاً يقول :

يا ربعتي يا رباعه   ما أطيب ركوب الوداعه

ذلك أنه عندما دفنه قال : (يا أهل المقبرة هذا وداعتكم) ! أي أمانتكم !

وإذا رأوا من جارهم رجولة وشجاعة وعقلاً دعوه إلى الحلف . والحلف يلزمه حقوقاً لهم غير حقوق الجيرة ، فالحليف يقاتل

مع الحي ، أما الجار فبالخيار ، والحليف يقاتل حتى قبيلته الصلب دون حلفائه ، أما الجار فلا يفعل ذلك ، ومن هنا يطلبون منه الحلف . والحليف له كل ما للعشيرة ، أمّا الجار فكالضيف ، ولذا كثرت الأحلاف في القبائل القوية منذ الجاهلية حتى اليوم .

والجار ـ عندهم ـ جاران :

أحدهما جار (صَيِّرة) أي جار مصلحة ، نزل على القوم للرعي أو الماء أو نحو ذلك ، وهذا تنتهي جيرته حسب رغبته ، وجار زابن (لاجىء) وهو الذي ارتكب جرماً في قبيلته فهرب طلباً للنجاة . وهذا يظل مجاوراً ما دامت المشكلة ، فاذا سوّى أمره مع قومه عاد إليهم .

وقد يقوم جيرانه بمساعدته بأن يتوجهوا إلى قومه للصلح ، وقد يحملون عن جارهم الغرم الكثير .

وظلم الجار واضطهاده وعدم الإحسان إليه من الأمور التي تحط من سمعة الجيران وتخفض شرفهم ، ولذا فهم يتسابقون إلى إكرامه ورضاه ، ولذا يقول شاعرهم :

لا بد وأنّ الجار مقفي عن الجار   واللي مضى من جارهم يذكرونه

أي لا بد من تفرق الجيران يوماً لا محالة ، فيذكر كل جار جاره بما عمل ، إنْ خير فخيراً ، وإنْ شرّ فشرّاً !

وهجا أحدهم جيرانه ، فقال :

جيـرانـنـا جـاورهـم الله بـامـانـه
من طيّب الجيـران ما هم من الـدُّوْن

شـدُّوْا على حُمرٍ لهـا حِنْدُوانــةً[1]
مـا قط لـلجيـران مـنهـا يـحـلبـون

وقال آخر يهجو جيرانه أيضاً فقال :

جيراننا بين الأبيـرق والأفلاج   مطعومهم غـالي ولايـذلبنهـم

ويكرمون الجارة ويتعففون عنها ويتجنبون زيارتها خوفاً عليها وعلى شرفهم أن يلوث ، وفي هذا الصدد يقول أحدهم :

لي جارة تنكر ثيـابي كلابهـا   تنبت زهور العشب من دون بيتها

أي لا أتردد عليها حتى تألفني كلابها ، ولذا فهي تنكر هيئتي فتنبحني ، ولو كنت أتردد على بيتها لما نبت العشب حتى يزهر بيني وبينها ، لأن الأرض التي توطأ بالأقدام المتكررة لا ينبت فيها العشب .

وقد جاء الإسلام مؤيداً وموطداً هذه الخصال الحميدة ، فقال تعالى : ﴿ **والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل** ﴾[2] .

وقال ﷺ : (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره).

وقال : (والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن ، قيل : من ـ خاب وخسر ـ يا رسول الله ؟ قال : من لا يأمن جاره بوائقه ، أو كما قال ﷺ .

وقال : ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه .

والأحاديث في هذا الباب كثيرة .

---

(١) الحندوانة : اختلاط صوت الإبل الكثير ، من حنين ورزيم ورغاء ، وهذا هجاء في ثوب مدح .

(٢) سورة النساء : الآية «٣٦» .

ومن أقوالهم في الجيرة والجيران :

* من جاور القوم أربعين صباحاً كان منهم - أي تطبع بطباعهم وتعلق بهم .

* من جاور ناور . ومعناه : صار كجاره تماماً .

وإذا أخطأ أحد على جاره وأراد المخطىء عليه أن يعاتبه ، قال : أنا جارك وقبيس نارك . أي تأخذ وآخذ منك القبس .

ومن أقوالهم : الجار وصى عليه النبي .

وإذا أراد أحدهم أن يثني على جاره ثناءً عطراً ، قال : (لا والله اللي لي جار) وهو كما نقول : (رجل ولا كالرجال) .

ويقولون : الجار قبل الدار .

وتوجد أحدهم على جيرانه بعد رحيلهم ، فقال :

عينتي الجيران يادار يادار
شدّوا وانا ظليت هذا مكاني ؟

يقول : أما رأيت جيراني الذين فارقوني ولست لهم قالياً ، وبقيت حيث أنا ؟

وكاكرامهم الجار والضيف يكرمون (الخوي) وهو رفيق الدرب المسافر معك ، ويرون عدم إكرامه رداءة ، وفي هذا يقول أحدهم :

لعل نو الثريا ما يتمثّنى ها الصمَيْدات
لعلها عند حَنّان الدَّبا يرعى شيرها
شالت بعيري حَسِين اللون ضاري بالجمالات
يشيل ميل الخَوِي يوم الرَّدِي يمنع ظهرها[1]

---

(١) يقول : لعل المطر الذي يهطل في نـو الثريا ما يمر بهذه الصمود ، لعل الدبا يرعى =

وقال آخر :

خوينا ما نصلبه بالمصاليب ولا يشتكي منا الجفا والعسارى

وقال آخر :

يخسا خوي ما ينيّر خويه روّح عنه وهو كنيّ الخبارا

أي : لا يعرف عن خويه خبراً ، بل تركه فعميت أخباره .

ومن أمثالهم :

* الخوي ، إمّا شلته وإلاّ شالك ، أي إما حملته وإلاّ حملك ، ويقصدون أنه يقصر عليك الطريق بالحديث أو تقصيره عليه .

* الرفيق قبل الطريق .

أي : اختر رفيق السفر قبل أن تعزم عليه .

وفي الرفقة يقول النبي ـ ﷺ : الراكب شيطان ، والراكبان شيطانان ، والثلاثة ركب .

= شجرها ، لأن بعيري الجميل المتعود على الجميل والذي يحمل الخوي حين يمنع الردي ، ظهر مطيته ، بعيري هذا مات في هذه الصمود .

حفظ الأمانة والوفاء بالعهد

البدوي الذي يصفونه بحب السلب والنهب وعدم الانضباط هو أمين وفيّ لا يخون ولا يغدر بعهده ، أما موضوع السلب والنهب والإغارة على الآخرين فهي خاضعة لظروف وأحوال ، وقد تمتهنها أرقى الدول المتحضرة .

ولكنها للبدوي سلب ونهب ، ولتلك الدول حروب وغنائم !

ولإخلاصهم للأمانة تجد أحدهم إذا أباح إلى أحد سراً وخاف كشفه ، قال : السر معك بالأمانة ، فلا يذاع ذلك السر .

وإذا سألت أحدهم عن خبر ، ولم يرد كشف سر أحدٍ ولم يرد أن يكذب عليك بعدم علمه إيّاه ، قال : (ماني شمس شارقة !) .

وإذا أراد أحدهم أن يستقصي خبراً ويلح في السؤال ، قال لمحدثه : (أسألك بالأمانة) .

وهذا سؤال مكروه ورد الأثر بالنهي عنه .

وإذا أمن أحدهم أمانة عند آخر فان المؤتمن لا يسلمها إلاّ إلى من دفعها إليه ، وإذا طلبها قريب أو ولي لصاحبها ، قال المؤتمن : (كل يد وما سلمت) . أي : لا تسلم الأمانة إلا إلى من سلمها بيده .

وقد يحول صاحب الأمانة شخصاً آخر لاستلامها وحينئذٍ لا بد من كتاب مكتوب أو أمارة معروفة بين المؤتمن وصاحب الأمانة.

فيقول الأمين: ما ماريّة صدقك؟ فيقول الرسول: ماريّة ما قلت له كذا وقال لك كذا! فيأتي بكلام لم يسمعه غير المؤمن والأمين.

والمفرط بالأمانة يسمونه خائناً، وكلمة خائن تكفي للقضاء على شخصية الرجل وطرحه من حسبانهم وعدم الوثوق به والتعامل معه.

وإذا وضع أحدهم أمانة عند آخر وأراد التحريض في الحرص، قال: (هذه أمانة الله وأمانتك) فيقول الأمين: حرزت إن شاء الله).

وإذا أمن رجل مال غيره أي لا يملكه عند أمين لا يعلم ذلك، ثم جاء صاحب المال يطلبه ويدعيه، أرسل الأمين للمؤمن بالخبر وطلب الحضور ومقاضاة المدعي حتى يثبت الحق.

فإذا ثبت أنه ليس ملك المؤمّن وأنه حق للمدعي أطلقه دون إذن المؤمن، واعتبر المؤمن مختلساً، إلا أنْ تكون (مَثْنِيَة).

والمَثْنِيَّة: بعير أو دابّة يُطالَب صاحبها بغرم فلا يدفعه، وحينئذٍ يحق لرئيس القوم أن يختلس هذه الدابة فيوصلها إلى ذي منعة، قائلاً: هذه مثنيتي أمانة عندك حتى يسلم فلان ما عليه من غرم.

فحينئذ يحتفظ المؤتمن بهذه المثنية حتى يسوى الأمر.

وإذا تعاهد اثنان، قال كل منهما: (والله وعاهد الله والخائن يخونه الله، إني لا أعمل كذا، أو لأعمل كذا).

وإذا أراد إثنان أو جمع أن يتكاتفوا على أمرٍ من الأمور ، قالوا : تعالوا نتعاهد ، فيجري العهد بالصيغة السالفة .

فإذا خان أحدهم شُمِّت به وحُقِّر ، وتسمع من يقول : (يخسأ خائن العهد) !

وتعتبر خيانة العهد من الكبائر التي لا تغتفر عندهم ، وهي عندهم أكبر من خيانة الأمانة .

وإذا أرادوا أن يجبروا شخصاً على ترك أمر ضيقوا عليه حتى يعاهد عنه ، وهذا عهد الغصب .

ومن أقوالهم في ذلك : (قال عاهد يا زنيفر . قال : من ورا الخشم) أي كرهاً لا رضاً .

ويقول شاعرهم يهجو رجلاً :

أنتـه منَـوِّل فقيـه وكـان تسلم بـالمجـانين
والبوم ما عاد تسلم مثل خـائن عاهـد الله

يقول : أنت كنت فقيهاً تقياً تقرأ على المجنون فيصحو ، أما اليوم فقد تغير حالك حتى صرت وخائن العهد سواء .

و إذا كانت الأمانة ماشية فقد يهملها الأمين ، ويقصر في سقيها ورعيها ، ولذا يقول شاعرهم :

عزّى لمالٍ ما يواليـه صاحبـه يمـوت لو أنّ الـربيـع حـذاه

ويقولون :

(مال تودعه بيعه) .

وإذا وصّى أحد آخر على ماله فنسي الوصيّ ، قالوا : (من وصّى نسي) !

وإذا أمن شخص مالاً من الماشية بلا أجر فأهمله حتى ينفق أو

يضل ، ادعاه صاحب المال مطالباً بضمانه ، فيقول الوديع : (ودّعني ماله وداعة بلا نفاعة) فلا يرى قاضي العرف ضماناً في مثل هذه الحالة .

والأمين أو الوديع غير ضامن في ثلاثة أحوال :

(النار الشابة ، والقوم الكابة ، والمطرة الصابة) .

ومن ضروب الأمانة في عرفهم : المرأة أمينة على مال الزوج وعرضه .

والوصي على الأيتام : أمين على مالهم ، وتجب عليه رعايته وحمايته .

ويستحرمون مال اليتيم وينفرون منه حتى لو كان مما يفيض عن دائرة الانتفاع ، كاللبن الزائد عن الحاجة أو الطعام المطهو ، وغيره ويقولون : (مال اليتيم نار شابة) .

وإذا إئتُمن رجل آخر ، ثم جهر له بالشك في أمانته ، نفض الأمين جيبه علامة التخلي عن الأمانة ، وقال : (ما يستوي أمين وخائن) .

أي : لا يؤمَّن الرجل ويخوَّن .

ويقولون : قالت الرَّخْمة ، أنا خير من ثلاثة : شاري القود سودعها[1] ، ومتزوج بنت ناس وتابعها ، وناصي قالة ما يسنعها[2] ويقولون : (الأمانة تبرّت منها الجبال) . ملمحين الى قوله تعالى : ﴿ إنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمواتِ وَالأَرْضِ وَالجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يحملنها ﴾ .[3] .

---

(١) القود : جمع قوداء وهي طويلة العنق ، ويعنون بها هنا الإبل .

(٢) القالة : القضية : يسنعها : يتصرف فيها ، ويدبرها .

(٣) سورة الأحزاب : الآية «٧٢» .

ويقولون : (مَن أَمَّنَكْ لا تخونه ، ولو كنت خائن) .

أي : لو كنت متعوداً الخيانة فلا تخن من يؤتمنك .

ويسمون الخوان والماكر بائقاً ، من البوق ، وهو ضد الوفاء .

ويقولون : (البوق ما يرقى فوق) ، أي : أنه يهوى بصاحبه إهانة وحقارة ، وإذا رأوا شخصاً أَمَّنَ مـالاً عند شخص ليس أميناً ، قالوا : (أمانة الذيب) !

وهي - بزعمهم - أن رجلاً كانت له نعجة فأراد السفر فأَمَّنَها عند الذيب ! فلما عاد سأل الذيب عن نعجته ، فقال : أَكَّلْتُها وسقيتها حتى انبعج بطنها !

وفي هذا الصدد يقول أحد الظرفاء :

فيمـا مضى أمَّن رب النعجـة الـذئبا

فكم ذؤيب لـدينـا اليـوم مؤتـمن !

وحفظ الأمانة من علامات الإيمان ، وخيانتها من علائم النفاق .

هكذا صح في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم .

الصـُـدق

العربي ـ بطبعه ـ صدوق ، وينفـر من الكذب ، ويحتقر الكذاب احتقاراً يفقده الثقة فيه ، وقد يفارقه ويقطع معاملته معه بمجرد اكتشاف كذبه .

وهذه فطرة سليمة قد يتفق فيها كثير من البشر ويجمع عليها كثير من الشعوب .

ويتفق هذا الخلق مع مبادىء الإسلام ، فقد قيل لرسول الله ﷺ : أيكون المؤمن بخيلاً ؟ قال : نعم . قيل : أيكون المؤمن باناً ؟ قالِ : نعم . قيل : أيكون المؤمن كذاباً ؟ قال : لا .

وإذا اشتهر أحدهم بالكذب يصبح مثلاً يوصف به الكذابون . فكان رجل اسمه (جبر) مشهوراً بالكذب ، فكنت تسمع الناس إذا عيَّروا شخصاً بالكذب قالوا : (هذا أكذب من جبر) .

وإذا أراد المثقفـون تغليظ كـذب شخص مـا ، وصفـوه بمسيلمة ، لفظاعة كذب مسيلمة الكذّاب .

وأكثرت العرب من زمن بعيد في ذم الكذب والكذابين ، ووصفتهم أوصافاً تجعلهم في حثالة المجتمع .

أما المتأخرون فقد تابعوا أسلافهم فيه حذو القذة بالقذة ، ولو اختلف التعبير لاختلاف الزمن والمفاهيم .

وقال رجل يعير آخر بالكذب ويشبهه بقوم اشتهروا بالكذب :

كذب المعقِّل مثل كذب (المرابين)

لقيوا لهم قطعة قمر في كدادة[1]

ومن أمثالهم في الكذب :

* الكذبة : من تغدّى بها ما تعشى بها .
* تعميرة الهبوب مثل هرجة الكذوب .
* الكذب : هيام الرجال .
* من كذب لك ، كذب عليك .
* غده ولا تعلّمه ، أي إذا ضافك الكذوب ضيفه ولا تسأله الأخبار .
* خذ من علمه وخل . وهذا يقال لمن يخلط صدقاً بكذب .
* إذا كذب الرجل مرة ، لم يصدق مرة .
* الكذبة معقورة الساقه : الساقة الطريق ، أي : أنَّ الكذبة مقطوع خط رجعتها .

وقد جاء الإسلام منفراً من الكذب ومثبتاً خلق الصدق .

فجاء في القرآن الكريم - في مواضع كثيرة - : ﴿ **ألا لعنة الله على الكاذبين** ﴾ .

ووصف كذب بني يعقوب كيف كان سبباً في شقاء أبيهم زمناً .

---

(١) كدادة : قتادة .

ووصف كذب امرأة العزيز ، وكذب المنافقين ، وكـذب المشركين على الله .

ولم يقصص الله جل وعلا الكذب إلاّ بيِّن ما بأهله من ريبة وخسة .

أما في الحديث ، فالصدق شعبة من شعب الإيمان ، والكذب شعبة من شعب النفاق .

وهما ضدان لا يلتقيان في نفس واحدة .

فقال ﷺ: المؤمن إذا قال صدق وإذا قيل له صدّق .

وقال : المؤمن إذا وعد لم يخلف وإذا أئتُمـن لم يخن ، وإذا حدّث لم يكذب .

وقال : المنافق : إذا وعد أخلف ، وإذا حدَّث كذب ، وإذا أئتُمـن خان . أو كما قال ﷺ .

وقال : ما زال الرجل يصدق ويتحرَّى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً .

وما زال يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً .

ويكفي الصدوق ـ في الدنيا ـ هذا الاحترام الذي ترى الناس يمنحونه إياه ، وهذه الثقة الثمينة التي يعطيها الناس بلا حساب ولا مقابل .

ويكفي الكذوب هذا الاحتقار الذي ينظر الناس إليه به ، وعدم الثقة التي جناها بخلقه الدنيء حتى أنه لو قال لآخر إن النار قد شبّت في بيتك ما التفت إلى قوله .

ومن أخبارهم أن رجلين التقيا في البادية وكان أحدهما جالساً وامامه قطعان من الإبل ليست له ، فسأله الآتي : من أنت ؟ فقال : أنا شيخ بني فلان ، وهذه إبلي !

فطمع ذلك الوافد فمدحه بقصيدة رفعه فيها إلى مصاف الملوك الأجواد ، رغم أنه لا يعرفه ولم يره من قبل !

فقال الممدوح : ذلك القطيع من الإبل لك ، فخذها مباركة عليك ، فلما استاقها أدركه أهلها فضربوه وأهانوه .

ثم التقى بممدوحه بعد زمن ، فقال له : أشكر لك ذلك الكرم !

فقال الممدوح : ذلك قليل في صدق مدحك !

الحثُّ على الصَّمت

البدوي يكره الهذر وهجر القول ، وتجده كثير النقد لمكثري الكلام .

ويُربِّي عياله وأهله على الصمت أو الكلام بما يفيد .

ولذا تجدهم يقولون :

* من كثر هذره ، قلَّ قدره .
* كثير الكلام كثير الغلط .
* من قال كل ما سمع ، كتب عند الله كذابا .

وقد تحدث الأقدمون عن الصمت ومزاياه ، فقالوا : إذا كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب .

وقالوا : من سكت سلم .

ويقول عرب اليوم (السكوت نكوت) .

ويعنون بالنكت النقض ، أي هذا الساكت يسمع ويتدبر الأمر ثم ينقض ما يبرم في هدوء .

والحقيقة أن الأولين والآخرين تحدثوا عن السكوت وعابوا الكلام الذي لا فائدة منه ، ولكن الواقع أن للكلام مزايا ليست

الفائدة تتم بالكلام ولا تتم بالسكوت .

فيقول ﷺ : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت .

فأوصى بقول الخير ، ولم يوصِ بالصمت إلاّ إذا كان القول قبيحاً .

ورُوي : الساكت على الحق شيطان أخرس .

والله سبحانه ، يقول : ﴿ **أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة** ﴾[1] .

ولا تكون الدعوة إلاّ بالكلام .

وتكررت في القرآن : وبشر ، وأنذر ، وقل ، وجادلهم .

ولا يتم هذا إلاّ بالكلام .

من هنا كانت حكمة اللسان الناطق للإنسان ، ولكن الله يريد أن يكون اللسان ناطقاً بالخير ، ولذا نقول :

فالنطق هو الميزة الأساسية للإنسان ، ثم تأتي الرغبة في الصمت إذا لم يستطع الإنسان قول ما يفيد . ولهم أيضاً أقوالاً في فضل الكلام ، منها قولهم :

* الله ما قبل من ساكت . يعنون أن العبادة التي لا يتلفظ بها الإنسان غير مقبولة .

وهم يقولون هذا عندما يعرفون أنّ شخصاً يرغب شيئاً ويستحي أنْ يطلبه .

* إذا ما تكلم اللسان وش دَرَّاني عما في الجَنَان .

أي إذا لم تطلب حاجتك ما يدريني عما في قلبك .

* إذا تكلم الإنسان إما زاد وإلّا نقص .

أي : أن عقله يتجلى في نطقه . كقول الشاعر :

وكأين من امرىءٍ هو لك معجب زيادته أو نقصه في التكلم

وخلاصة القول : إنّ الكلام المفيد خير من السكوت .

وإن السكوت خير من كلام لا فائدة فيه .

والعاقل الذي يعرف متى يتكلم ومتى يسكت .

الحُلم

ميزة خيرة من ميز البشر ، وقليل هم الحلماء .

والحلم : ترك العقاب والانتقام عند القدرة على ذلك ، وهو خلق يجبل الإنسان عليه ولا يستطيع أن يتصف به .

ولا نستطيع أن نصف العرب بالحلم ، فهم سريعو الانفعال شديدو التأثر ، غير أن تأريخهم لم يخلُ من الحلماء ، وهم يقدرون الحلم والحلماء ويمتدحون ذلك كثيراً .

ومجَّد الإسلام الحلم ، فقال سيد المرسلين : الحلم سيّد الأخلاق .

وقال : ما كان اللين في شيء إلاّ زانه ، وما كان العنف في شيء إلاّ شانه .

واللين نوع من أنواع الحلم .

وقال تعالى : ﴿ **والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس** ﴾[1] .

---

(١) آل عمران : ١٣٤ .

وما كظم غيظـه غير الحليم .

وقد ركَّز الإسلام على العفو والصفح عن الظالم والجاهل والمسيء ، هذا هو الحلم .

وقيل : أنّ ابن أخ لقيس بن عاصم قتل ابنه (ابن قيس) ، فجيء إليه بهذا يحمل ميتاً وذاك مشدود الوثاق ، فقيل له : هذا ابن أخيك قتل ابنك ، وكان قيس محتبياً فما فك حباءه ، ثم نظر إلى ابنٍ له وقال : يا بني فك كتاف ابن عمك وهدىء من روعه وسق إلى أمك مائة من الإبل ، فإنها أجنبية .

وكان الأحنف مشهوراً بالحلم ، فقيل له ممن تعلمت الحلم ؟ قال : من قيس بن عاصم .

وللعرب المتأخرين حكايات في الحلم لا تقل روعة عمن سبقهم ، فقد قيل : أن قصة قيس بن عاصم تكررت في شخص أحد المعاصرين .

ومن أخبار حلمائهم المعاصرين :

قيل : أنَّ شيخاً من شيوخهم كان جالساً في قومه ، فإذا بمعتوه أقبل يسعى وبيده كرش ذبيحة فلطم بها ذلك الشيخ على وجهه

فابتدر القوم أسلحتهم ليبطشوا بالفاعل ، فنهاهم عنه .

وبعد مدة استدعى ذلك المعتوه وسأله عمن أمره بذلك ، فأخبره بأن فلاناً دفع إليه جنيهاً ذهباً ليفعل ذلك .

فدفع هذا إليه جنيهين ، وطلب منه أن يفعل نفس الفعل مع من بدأ بالشر ! .

فما كان من ذلك المعتوه إلا أن نفذ ما أُمِرَ به .

فلما فعل ما فعله ، امتشق المعتدى عليه الحسام وفلق رأس الفاعل .

وهكذا استطاع الحكيم بحلمه أن يثأر لنفسه ويوقع عدوه في شر ما صنع .

وقيل : أنّ حليماً من البادية جاءه شاب من أسرة عريقة ، وقال له : إنني في قومي لا ينقصني الا الحلم ، فأرغب أن أرافقك لأتعلم منك ذلك .

فسافرا فوردا ماءً عليه رجل يملأ حوضاً ، فأرادا أن يكرعا مطيتهما في ذلك الحوض فلطمها صاحبه وأغلظ لهما ، فوثب إليه الشاب فمنعه الحليم ، واستخرج بيده ماءً أسقى به المطية ثم تنحيا فأوقدا للغداء فإذا بالحليم يدعو ذلك الرجل الذي نطم مطيته للغداء ، فلما لامه الشاب ، قال له : سيقع هذا الرجل في غيرنا !

وبينما هم على الغداء ورد الماء ورد ، فأسرعت دوابهم إلى الحوض فوثب إليها الرجل يطردها ويغلظ لأهلها ، فوثبوا عليه وضربوه ، والشاب ينظر ومدرسه الحليم يقول له : أرأيت ؟!

وعادا إلى أهلهما وفوجئا بعبد هذا الرجل الحليم على منكر مع صاحبة البيت ، فوثب الشاب ليقتله فمنعه الحليم قائلاً : لا ، بل فلان هو الذي يقتله . يعني شخصاً عدواً له .

فقال الشاب : هذا العار في بيتك وتريد من عدوك غسله عنك ؟ والله لا رافقتك أبداً !

وذهب الشاب ، أما الرجل الحليم فلم يشعر أحداً أنه رأى شيئاً ، ولكنه استدعى زوجته ، وقال لها : إذا اجتمع القوم عندي

للقهوة فقولي : أنا طالبة منك الطلاق ، فإذا قلت لك : أشائمة أنت عني ؟ قولي : نعم ، أنا شائمة عنك لفلان ـ الذي ذكره في أول القصة ـ واذا خطبك فلان تشترطين عليه هذا العبد !

وهكذا كان . وفي إحدى المرات رأى فلان هذا ما رآه الحليم ، فأسرع وقتل المرأة والعبد ، وأسرع أهل المرأة إليـه فقتلوه !

ولهم قصص يطول شرحها في هذا الصدد .

الدهاء والحيلة

كانت العرب تقول للعاقل الواسع الحيلة داهية ، وجمعه دهاة .

والدهاء : رسم الخطط والتخلص من المآزق بإيقاع الخصم أو التخلص منه .

وكان معاوية من دهاة العرب ، وكذلك كان عمرو بن العاص .

والدهاء مخالط للمكر متحد مع الخديعة .

والحيلة من الدهاء ، وقد يحتال الضعيف على القوي ، والجاهل على العالم ، والذي يرى هؤلاء البداة قد لا يظن أن تحت ثيابهم أنماطاً من الدهاء والحيل كثيراً ما تفوق أصحابها على أعقل العقلاء .

فمن حيلهم ـ مثلاً ـ احتيالهم للشفعة .

ذلك أن الشافع يجب أن يدفع للمشتري ما دفع عيناً .

لذا يلجأون إلى وضع البلح في السمن فيبقى كما هو ، فإذا اشترى أحدهم شرية في الشتاء أضاف إلى الثمن عدداً من البلح ،

فتجدهم - مثلاً - يقولون : قد بعت على فلان النخلة الواقعة في مكان كذا بمبلغ مائة ريال وثلاث زهوات حمر .

فإذا جاء قريب البائع أو حديده[1] ليشفع ما بيع وجب عليه دفع ثلاث زهوات حمر !

فمن أين يأتي بالزهو في الشتاء ؟ .

ومن الحيل التي يعملها أبسط بسطائهم ، أنه إذا تزوج رجل امرأة وأراد بعضهم العبث به جلس وهو يسمع كلام (المملك) ، المأذون ، ثم يربط خيطاً كلما تكلم المأذون ، بطريقة يعرفونها ، وعند سماع كلمات خاصة .

فإذا فعلوا ذلك لم يستطع العريس أن يقرب العروس[2] .

ومن حيلهم : أنَّ الرجل يأتيك ومعه رجل أو امرأة ، ثم يقسم لك انه أخيه ، ويقصد أنه أخيه في الإسلام .

ولهم في هذا قصص يطول شرحها ، انما أردنا بهذه اللمحة إثبات هذه الخلة وعدم الأخذ بقول من قال : ان البدو سذج ، ولو اختلط بهم من قال هذا لأوقعوه من أقرب الطرق .

---

(١) الحديد : الذي أرضه تحد أرضك .

(٢) وهذه أقرب إلى السحر والشعوذة ، ولا يفلح الساحر ، ولا يربح المشعوذ .

المدح والغلو في الممدوح

البدوي ينفر من المدح بطبعه ، ولكنه إذا رأى موضع المدح مدح بصدق ، ولذا فالممدوح عندهم يعتز بالمدح أيما اعتزاز ، لعلمه وعلم من يسمع بمدحه أن هذا المدح حقيقة ، وأن مادحه بدوي لا يعرف النفاق ولا المجاملة .

ولكنهم إذا أحبوا مدحوا وغالوا ، والغلو في مدحهم كثيراً ما يمنحونه أعزاءهم كالابن أو الزوجة ، ونحو ذلك .

فهذا رجل مدح ابنته البدوية البسيطة بغلو مخلوط بالفكاهة ، فقال :

لعـل يفـدَى (هَنَـهْ) ستين مَنْقِيّـة من الضـان
و (زُهَير)[2] يفـدَى هَنَهْ (والبَرْق) والثلب الكبيري[3]
مـا تلبس إلّا حـريـر مكلفينـه تـرك عثمـان[4]
قـدَّام تلبس هَنَـهْ تقف المحـامـل مـا تسيـري[5]

---

(١) اسم البنت .
(٢) زهير والبرق : جملان للشاعر .
(٣) الثلب : الجمل المسن ، ويقصد جمله المسن .
(٤) صناعة الأتراك العثمانيين .
(٥) الياء للإشباع .

حـرام مـا مثلهـا إلّا بنت عنـدك يـا عُيَيْفَـان[1]

يـا بـاشـة السلطنـة لمِّي على بـاشـة عسيـري[2]

وكان لآخر بنت عرجاء دميمة ، فقيل له ذلك ، فأنشد :

حرام ياللي يهاوش داخله ما يعرف الزين[3]

حـرام يا داخلة مـا جاكمـاها في النـواشي

يا رَبِّي العفو يوم تجيك ثم تكحّـل العين

مدموجة الوسط ماهي من كثيرات الدهاشي[4]

العَسْمي أرسل عَلَيَّه باربعين جنيه والفين[5]

وارسل علي الشريف وراحت الرسله بلاشي

ومدح تركي بن حميد بعيراً ذلولاً له ، فغالى في مدحه ، فقال :

أمه نعامه واضـربوهــا بعيـري وجامغلطانـيّ على خُفّ وجناح

فاستغل الفرصة غريمه الشيخ هادي ابن قرملة شيخ قحطان ، في عهده ـ فقال معرضاً بكذب ابن حميد ـ :

يـا تركي ابن حميـد وش ذا البعيـري

مـا تجلبـونـه كـود تبـون الاربـاح

---

(١) شاعر آخر خاف شاعرنا سطوته ، فاضطر إلى مدح بنته .

(٢) الباشة في عهد العثمانيين : الوزير ، وكانت السلطنة ترسل مع المحمل باشا .

(٣) اللي : الذي . يهاوش : يخاصم .

(٤) ليست خفيفة مغرورة .

(٥) العسمي شيخ حرب في زمن مضى .

(٦) كود : إن كان . تبون : تبغون .

ومدحت إحداهن قومها فقالت تخاطب إبلها :

إرعي الشفـا وازهلي الحَـوَّاف والعَيْنِي

إذا أَقبلت عــزوتي قَفيَّ الســلاطيـني

أي : أن السلاطين تخاف قومها ، فكيف بالحواف والرقباء .

أما مدحهم للملوك والرؤساء فهو شيء جرت به العادة ، فإذا كان الشاعر ممن يغشى مثل هؤلاء فلا مندوحة له عن ذلك .

وهذا بديوي الوقداني شاعر الطائف في القرن الثالث عشر في قصيدة يمدح بها الشريف الحسين بن محمد بن عون الرفيق :

يـا راكب اللي يـاخــذ الحـزم مــواج

مــواج دوٍّ تَــاهْ فــي الـغـبـتـيـنِ

ليا استشـد الـريـح تـرميـه الأمـواجْ

أمــواج بـحـر يضـرب الـجـالـتـينِ

ضـاري على قطع الفيـافي وسَجَّاج[1]

سَجَّـاج بيـن الشـرق والـنُّقْـرتـيـنِ

محنَوْنيٍ كـالقــوس مِنعـاجْ مِنعــاجْ[2]

مـثـل الهــلال الـلي ولــد لـيلتـيـنِ

وإلّا كمـا سرحـان مـع فـج الافجـاج

وإلا الـغــزال الـلي رمـي رمـيــتـيـنِ

يجفل ليا ما شاف ظل العصا ماجْ[1]

راعيه ما يقدر بمد اليدينِ

كوره عقَيْلي مشترينه من الحَاجّ[2]

والميركة والخُرْج والغُرْضَتينِ

ضرب عليه ليا سجا الليل وانساجْ

وزارت مراسيل الكرى كل عينِ

عطها مع الرِّيعان والدرب مدهاجْ

والسَّيْل مره ما مضى ساعتينِ[3]

وأحرم بعمره واقطع الدرب منهاج

منهاج من يمشي على الفرقدينِ

تصبح بمكّه حَزَّة الصبح منباجْ[4]

واسعَ وطُفْ وصلّ لك ركعتينِ

وانصَ الملوك اللِّي لهم نور وهّاجْ

نور من المشرق إلى القبلتينِ

سلّم عليهم واخرج الهرج مخراجْ

واعرف مقام الملك في الحالتينِ

واخرج لهم خط طوِي طي ديباجْ

هدية من باشة المحملين

---

(١) علامة الحر من الركاب .

(٢) عقيلي : نسبة إلى بني عقيل من قبائل نجد ، وأصلهم من بني عامر ، ثم أطلق هـ الاسم على التجار الذين يتاجرون بين الجزيرة والشام وبغداد ، وليسوا من عقيل في شيء .

(٣) بلدة بين الطائف ومكة .

(٤) حزة : وقت ، ومنباج : لائح .

منظوم فيها ابيات من بحر عَجّاجْ

نظم الجواهر في سلوك اللُّجينِ[١]

يا عون يا سِيدِي كسيت أنت (فَرّاجْ)

وأنا تراني عند سِيدِي الحُسَيْنِ

حيث أنْ له عادة وله جود ثَجّاجْ

من معصرات الجَدّ والوالدينِ

يا ما عطوا خيلٍ ملابيس وامراج[٢]

دهمٍ جماح محجَّلات اليدينِ

وإنْ جا نهارٍ فيه للخيل مسهاجْ

ونادى بشير الموت في الجمعتينِ

ركبوا على حُمرٍ يشادنّ الأبراجْ

مصقَّلاتٍ لبسها كُلّ زينِ

وظَلّا غبار النَّقع من فوقهم تاجْ

وتصادم الهِنْدِي وسمر الرديني

كم جندلوا من فارس غير مزعاجْ

حامت عليه الطير بالخافقينِ

ورماحهم روس الاعادي لها أزراجْ[٣]

ضد الرماح اللي لها زرقتينِ

يابن محمد يا غِنَى كل محتاجْ

ويا عيد مديون تحمل بديني

---

(١) اللجين : الفضة .

(٢) المرج من الخيل والإبل : التي لا وثر عليها فهي عرو أي عريانة

(٣) أراد «أزراق» من الزرق ، فاضطرته القافية إلى تغيير الحرف

خـدامكم شَفَّـهْ من المـال سيـراج
وإلّا فـرنـجي لـهـا حبَّـتـيـنِ[1]
حتـى يـودي ذكـرهـا كـل هَـرَّاجْ
وأخبـارهـا تـأصـل عَـدَن والعُـدَينِي
وأبدى لك البيضـا عدد ريح الأفواجْ[2]
تمشي ركـاب المـدح بينـك وبينِـي
ويفـرح صديقي والعـدو صـادهْ افـلاجْ
من غبنهـادمعـه من العين عيـني[3]
وصلوا على من خصـه الله بمعـراج
مـحـمـد الـمـخـتـار جـد الـحـسـين

---

(١) الإفرنجي : البندق . ويقولون : صنع الفرنج أو صنع النصارى .
(٢) البيضاء : أن يقال : بيض الله وجه فلان . وهي عاداتهم في المدح .
(٣) أي : يرى عينياً .

الغَـــزَل

منذ الجاهلية اشتهر العربي برقة شعوره تجاه الجنس الآخر واشتهر كبار الشعراء باتخاذ محبوبة ـ إما حقيقية أو وهمية ـ للتغزل بها .

فهذه عبلة عنترة ، وتلك أم أوفى محبوبة زهير ، ثم عزة كثير ، وبثينة جميل ، وغيرهن كثير .

غير أن الإسلام صبغ العربي بصبغة جديدة ، فحد من انطلاقة التشبيب ، وأحرج المتغزلين ، وحرَّك الغيرة في نفوس ذوي المُشَبَّبِ بهنَّ ، وكفل حق محاكمة المُشَبِّبِ باعتباره معرضاً بالأعراض ، فحقَّر كثيراً من شعراء التشبب ، حتى أن عمر بن أبي ربيعة (شيخ النسيب) كان مقلياً من الفضلاء محتقراً لدى ذوي السلطان لتعريضه بكرائم الأشراف ، وتمجنه مع صاحبات الصون والعفاف .

من هنا اختفى عنصر هام في تشبيب البدوي ، ألا وهو اسم المحبوبة .

واستعاض عنه باستعارة أوصاف تناسبها ، وتليق بمقامها ، مثل : الجميل ، والزين ، والحبيب ، وَزَيْد ، والغزال ، وغيرها .

ويلجأ إلى تذكير اسم المحبوبة إجلالاً لها ورفعاً لمقامها .

ولا يشبب البدو بعاهر ، ولا بصاحبة سمعة ، ذلك أن عواطفه ـ عنده ـ غالية ، فلا يمنحها إلّا لمن يرى فيها كمال الأخلاق والجسم والروح .

وقد يضفي عليها صفات الجميل ، كقولهم : يا كحيل العين ، ويا ترف القدم ، ويا صافي الثمان ، ويا أَرْيَشَ العَيْنَينِ ، ويا عود بان ، ويا خُوَيْط الضَّيْمَران .

ولذا يقول أحدهم :

يا مُكَسِّر نصاك اليوم (تـرِف القَدَم)
سارحاً بالغنم من يم ضلعان ضاف[1]
هـودخيلك من الرمضا وشوك السلم
والظما لا يجي راع الثمان الرِّهَاف[2]

فهو يصفه بترف القدم (المنعم) ، ويصفه بأنه ذو ثمان رهاف ، (أي مقدمة أسنان لطيفة متناسقة) .

ويصفون النساء بالبيض : جمع بيضاء ، ولذا يقول أحدهم :

لا واهَنيّ البِيض أثرهنْ مـريحـات[3]
مـا همهنْ غيـر الـدَّبَش يقهـرنّـه[4]

---

(١) مكسر وضاف : جبلان يشرفان على الحديبية من الشمال . يم : جهة .
(٢) الثمان : الأسنان التي يفتر عنها المبسم .
(٣) يقولون : آثرك هنا ، أو أثرك تعلم كذا ؟ أي اأنت هنا وأنا لا ادري ، أو اأنت تعلم و لا أدري ؟؟
(٤) الدبش هنا : الغنم من ضأن ومعز .

ما دَوَّرَنَّ الـدَّيْن عند الخـواجـات[1]
ولا عَـوّدَنْ لـلمنـقـطع يلحـقـنّـه

ومن شعراء الغزل المتأخرين : مخلد القثامي ، من قبيلة عتيبة ، يقول في محبوبة له :

يقـول مخـلد بـادٍ الحَـيْـد الأسمـر
في مَـرقبٍ قدم الـظَّعـاين منيفي[2]
يـا الله وانـي فـي رجـاك أتـصبـر
صبـر الـديـار المسنيـة لـلخـريفي
تَعْـزَا لِعينٍ دمعهـا حـار وامـطرْ[3]
لينـه تهشم حجـرهـا بـالـذريفي[4]
والله لـولا الـعـظم يـوم أتعَمَّـر
وليـا مليت العـظمِ عِيـدي وَرِيفِي[5]
أبـرد بـهـا عبـراتـي الـلّي تـكـسَّـر
لا شب في قلبي سـواة الصريفي[6]

---

(١) الخواجات : التجار .

(٢) الحيد : الجبل . منيفي : منيف ، والياء للاشباع .

(٣) تعزا ، ويقولون : عزى : كلمة إشفاق .

(٤) حتى تهشم محجرها من الدمع الذارف .

(٥) العظم : الغليون ، وسبب هذه التسمية أن البدوي كان يدخن في عظم شاة ، حتى جاء

ولـولاك يـا طهم الـدلال المنحّـر[١]

لَـوَلَّفْ القِيْفَـان واهـرف هـريفي[٢]

هَـرِيف سِرحـانٍ بعـد لَيْـلٍ أقشـرْ

هـايـفٌ ومـطرورٍ وَتَلفٍ معـيفي[٣]

عليـك ياللي حِبّتـه كِنَّهـا الـدَّر[٤]

دَرَّ الصَّعْـوب إنْ سَلْهَمَتْ لِلْعَـطِيفي

دَرّ الـصَّعُوب مكسّرٍ فيـه سُكّـر[٥]

ومبـرّدٍ في عـارضـي رَهِـيـفي[٦]

لاَ رَوَّحَـتْ من واديٍ نبتـه أخضـر

بـين الـحِـرَار وغـادي لـه لـفيفي

عــز الله إنّـه بـالهـوى كَـرّني كَـرّ

كـر الـظوامي للقليب الـغـريفي[٧]

مـن لامني لَـعَـلّ يُـمْنَـاه تُـكْسَـر

وَيَـطِيح في دَقْلَة خَـويّا الشـريفي[٨]

يـا لايـمي عَـسَـاك لـلحَـرّ وأكثـر

بـمَـحَـلَّجٍ وبُـوَارِدِيٍ ظَـرِيـفِـي

---

(١) الدلال الطهم : التي لفحتها النار . منحر : المنصوبة على النار .

(٢) لأؤلف الشعر، وأهيم على غير هدى .

(٣) كهريف الذئب في ليل لم يجد فيه عشاء ، فهو هائف كئيب عائف سفرته .

(٤) هذا جواب القسم .

(٥) على من قبلته تشبه حليب البكرة إذا عطفت .

(٦) هذا الحليب مبرد في صحن عارضي ، منسوب إلى العارض من نجد .

(٧) يقسم أن المحبوب كر قلبه كر المغاريف لقعر البئر .

(٨) لعل لائمي يقع في مقدمة جيش الشريف فيؤسر .

فِي دَرْجَـةٍ تُحْـذَقْ بِـخُفَّـانْ وَعْشَـر

يـأخـذ سَنَـهْ غَمْقٍ صـوابـه مصِيفِي

ويـا لايمي طـاولـك في عُمْـرِكَ الشَّـرّ

وتـأخـذ سنـه بَيْن القَـرَايـا تضِيفِي[١]

ويـا لايمي طـرْحَـوْا عيـالـك مجَـدَّرْ

ومن بعـدهم تقعـد ضعيفٍ كَـفِيـفِي

يـا زِيْن خِلِّي وانْ مَشَى بـالمَشَجَّـرْ[٢]

وثُـوَيْب سِبْهَـانٍ خِيَـاطِـه نَـظِيفي[٣]

يـا من لقلب يجـذبـه كـل مـا مـرّ

وليـا دَلَـهْ بـالعين وازنـف زنيـفي[٤]

زَنيـف دَرَّاجْ السَّـوَانِـي لـيـا صَـرّ

عـلى ثَـلاثْ يجـذبـنَّـه صفـيـفِي[٥]

يـا لـيت خِلِّي يـوم قَفَّي تَعَـذَّر

مـا اقفى على السَّفْهَان كِنَّـه معيفِي[٦]

مـن يَمَّـكُمْ يـا الـطَّيِّبِيـنَ اتعَـذَّر[٧]

تـدرون راع الـحِبّ قَـلْبـه رَهِـيفـي

---

(١) وعسى لائمي يصاب بالحر على عزيز له ، وأكثر من الحر ، يصاب برصاصة محذوقة بالخفان والعشر ، يأخذ سنة حتى الصيف وصوابه يدمي . ويطول مرضه حتى لا يجد ما يأكله ، فيظل يضيف الناس ليقتات .

(٢) ثوب مزركش بالقصب .

(٣) السبهان : نوع من الحرير .

(٤) دله : نسي . الزنيف : أنين في صوت رقيق .

(٥) السواني : الدلاء التي تجرها البهائم على العجل ، أي : نواعير .

(٦) السفهان : السكوت . معيفي : عائف .

(٧) يمّكم : جهتكم .

دَلاَّ يَـزَايِـدْنِي بِشُـقْـرٍ تَـنَـثَّـر[1]

وَمَحَـاجِـرٍ لِلْمَـوْتِ فـيهـا رَفِيـفِي

ولِيْ عَشِيـرٍ بـالهَـوَى جَـرَّنِي جَـرّ

ويـجـرِّنِي جَـرَّة حُـزُون الـخَـرِيفِي

وفي عَيْنـه اليُمْنَى سُيُـوفٍ تـسَـطَّرْ

وفي عَيْنـه اليُسْـرى عسـاكـر شَـرِيفِي

أشكي على حَمَّـاسَـة الْبِنّ الأَشْـقَـر

أهـل النُّجُـور اللِّي تَـرَازَفْ رَزِيفي[2]

وأشكي على لَبَّاسَةْ الجُـوْخَ الأحْمَـر

مِـن فـوق قُبٍّ يـنقـلن الـرَّدِيـفي[3]

وأشكي على اللي يَمّ حـايـل تَـوُمّـر

تَكْفى يَخُـو نُـوْره زَبُـون المخيفي[4]

وحج مخلد فرأى - في المدعى - جميلة لا يعرفها - فهام بها أيما هيام ، فأنشد :

يقـول مخلد عنـد بـاب الحَـرَم وَنّ

بـالمُـدَّعي يـا عـارفين المكـانـي

---

(١) دلا : ظل . يـزايـدني : يعاندني . بشقر تنثر : بذوائب شقر ينثرها على كتفيه .

(٢) أشكو الى الغانمين أهل الكيف ، أهل الهاونات التي يدق فيها البن فتراها تتحرك كأنها جمال تترازف .

(٣) الجوخ : كان علامة يلبسها الشيوخ تهدى اليهم من الحكام . قب : جمع قباء . وهي الناقة الفارهة .

(٤) يشكو على الذي جهة حائل تأمر ، اخونوره ، وهو ابن رشيد .

أقـدامـنــا وأقــدام خِـلّي تــنـاصـنّ
في مــطرح عنــه الــطريق يحــداني

أول عــذاب القلب من عنبــر خَنّ[1]
والمســك والــريحــان والــزعفــراني

واتْــلاَ عــذاب الـقلب شُـقْـرٍ يـهـلّنّ
عـلى عُـنَيــقٍ كِـنّـه الـخـيــزراني[2]

جــاني يجــرّ هْــدُوم مَــدْرِي وَشِنْهِنّ
لابس على الــدقلة حــريــرٍ يمــاني[3]

أَرْبَــعْ سِنِينْ اقْـرِعْ كمــا يَقْـرِعْ الشَّنّ
يــا واصـلينــه عَـلّمُــوهُ بـمـكــانـي

وأَرْبَــعْ سِنِينٍ حِبّ سِيـدِي على ظَنّ
واربَــعْ سِـنِـيـنٍ زَادَنَــا مَــا هَـنَــانـي

وِدِّي أسـايــل عنـه وأقــول : مِنْ مَنْ ؟
لو كان سِيـدِي خَابْـرِهْ ما غــواني ![4]

ستّيــنْ مَنْـضِيّــة مـن الجيش يَنْـقَنّ[5]
أيـضــاً ويـقْـفَـاهِـنّ عَــشْــرْ وَثْـمَــانِ

---

(١) فاحت رائحته .

(٢) شقر : ذوائب شقر ، على عنق يشبه عود الخيزران .

(٣) الدقلة : لباس فوق الثوب مفتوح من الأمام .

(٤) هذا تناقض من الشاعر .

(٥) المَنْضِيّة والنضو : جمعها أنضا : الركاب : الأحرار .

عشرين منها من شفا نَجْدْ هَفَّنّ[1]

وعشرين منها يم وادِي قْحَطَانِي[2]

وعشرين منها في المدينة يَرَسَّنّ

وثمان منها يم وادي شْهَراني[3]

والعشر الأخرى في سُويقة يَحِلّنّ[4]

ويدورونه في الغبا والبياني

أوْسَط وَعَدْ لَيْلَة فُطُورَهْ يَهِلّنّ[5]

وأول وَعَد لَيْلَة هِلَال رمُضَانِ

وآخر وَعَدْ يوم المحامل يدُقّنّ

في لَمَّة الحِجّاج لَيْلة ثَمَانِ

إنْ كَان جَابَنّ الْحبَيِّب عليْهِنّ

أبا أنْشر البَيضا وَالجَّ الغَنَانِي[6]

وانْ كان ماجَانِي على الله جَزَاهِنّ

والموت أخير من الهوى والهواني

وطلق أعرابي زوجته ، ثم رآها بعد ذلك فاعجبته ، وكان له عبد يسمى (بصر) ، فأنشد يقول :

يا بُصْرْ باصرني بجُرْحِ هَوَى الجَوْف

شِفْ له بحالي يابو جَنْدل مَوَارٍ

---

(١) ذهبن .

(٢ ، ٣) قبيلتان كبيرتان . انظر عنهما كتاب (بين مكة وحضرموت) .

(٤) سويقة : كانت أحد أسواق مكة .

(٥) فطورة : شوال وذو القعدة .

اللي جَعَلْ جِسْمِي على الدُّوْب مَنْحُوف[1]

خَـدَّهْ لِمَـعْ مثْـل لَمِيعَ الشِّبَـارِي[2]

عِلْمِي بِهِمْ والنَّـزْل طَوْفٍ ورا طَـوْفْ

هَـذَاك غَـبَّـاشٍ وَهَـذَاك سَـارِي[3]

شَـدّ الشِّدِيـدْ وَحَذَفُـوا حَقَّهْ الشَّوْف[4]

هـذا بـاثِـرْ هـذا وذا بـالأَثَـارِي

من جَـابَهُمْ لي فـاعِـلٍ فِيّ مَعْروفْ

يَجْـزَاهْ خَيـرٍ كـل مـا حَـلّ طَـارِي

يـا لايِمِي جَعْلِهْ على حَدّ مَرْهُـوف[5]

ليـا اَدْبَحَـوْا رَبْعِـه بـوَجْـه المثاري

والا رَبِيطٍ من وَرَا نُـقْـرَة الجَـوْف[6]

يحبس بـدار الـروم حمـر العَتَـارِي[7]

وتؤثر البيئة تأثيراً ملحوظاً في شعر البدوي ، وكذلك مركزه الاجتماعي ، فمخلد ـ مثلاً ـ شاعر صحراوي ذو مكانة اجتماعية مرموقة ، ولذا تجده يذكر جيش الشريف ، ويذكر ابن رشيد أمير حائل، ويأمر أهل المطايا بالبحث عن محبوبته .

---

(١) على الدوب : باستمرار .

(٢) لمعـان الشباري ، والشباري : نوع من السلاح يشبه الحراب .

(٣) آخر العهد والنزل متجاور بعضه بجانب بعض ، ومنهم راحل بالغسق ومنهم سار بليل .

(٤) شد : رحل . حقة الشوف : برهة الصباح .

(٥) السيف .

(٦) الجوف : أرض زراعية بآخر شمال شرق الحجاز .

(٧) بلاد الشام ، ويقصد بحبسه سلطان دمشق .

أما البدوي الآخر فيتحدث عن القطين وتفرقه ، وذهاب المحبوب بسبب ذلك التفرق ، فهو بدوي ذو مكانة محدودة في قومه يحب كما يحب أترابه ويتوجد كما يتوجدون ، ولكنه لا علاقة له بالجيوش ، والأمر والنهي .

وهذا محمد العسيلي الحربي ، يعرض حبه فترى فيه الإنسان الذي يعطي المحبوب قلبه ، وينكر عليه ألّا يبادله نفس التضحيات ، ويعظه بأن الواشي إذا وشى لك وشى بك ، ثم ينهي عتابه بالانفصال الذي يعيد اعتبار محب أخلص في حبه ، ولكن الحبيب لم يقدر عواطفه وإنسانيته وفي حرب تكثر التعابير الإنسانية في الغزل والعتاب اللطيف .

يقول العسيلي :

يا اللي تعاتبني وتكثر شكاويك[1]
بالله تَسْكُتْ لا تحرّكْ شُجُوني
انته تعاتبني وانا اقول : لبيك[2]
من خوف حساد العرب يفرحوني[3]
يا صاحبي يوم اني اقفي ولا جيك
أخاف من ناس عليك حسدوني
من اللي عرض لك يا حبيبي وانا ابيك ؟
عسى تعرض له مرُودَ الْجُنُوني

---

(١) اللي : الذي .
(٢) انته : انت .
(٣) العرب هنا : الناس .

قلبي على سِرّ المَحَبَّة يناجيك
وِشْ لون ابا صبر ؟ ما لصبري حُتُونِي [١]
لا تحسب اني يوم جَنَّبتْ جافيك
جفاي من ناس جفوك وجفوني
لو انت ناسيني فلاني بناسيك
ترقد وانا بالليل تسهر عيوني
يا صاحبي والله ما ابيعك ولا هديك
لا والذي خَلَّى العرب يألفُونِي [٢]
يفِزّ قلبي كل ما وْحَيْت طاريك [٣]
وأهل العلوم العُوج ما غيّروني [٤]
اللي حكوا لك يا حبيبي حكوا فيك
مع ظلمهم لك يالحَبِيب ظلموني
لكن لا صارت تغير طواريك
مالي ومالك يا كثير الظنوني [٥]
لا صرت تسمع حكيهم من يصافيك ؟
تكشف خفا للناس ما يستروني
حرام تغضبني وانا قبل اراضيك
الغش ما يرضاه من له عيوني

---

(١) الحتون : المواعيد والحدود .
(٢) العرب هنا : الناس . يألفون : يحبون .
(٣) يتحرك قلبي كلما سمعت ذكرك .
(٤) أهل العلوم العوج : أهل الوشاية .
(٥) لكن إذا تغيرت عواطفك .

والله لـونَّـك تملك الـروح بيـدَيْـك

مـا خلِّي النفس الشـريفـة تهـونـي

إنْهَـجْ وانا بَـارُوحْ والهَـرْج يكفيـك[1]

ونـاس حكـوا لـك خلِّهم ينفعـوني[2]

من اوّل حفظت العهد كله غَلاَ فِيك[3]

واليـوم عُقْب العَـهْـد خَلّك تـهـوني

بِقْت العَهِـد وارجي من الله يجازيـك

وجـزاك مني بـالجفـا والغبـوني[4]

أما اهل ساحل الحجاز فلهم لون لطيف من الغزليات ، يسمى (الكَسْرَة) وهي ـ غالباً ـ مثنَّيَات لطيفة عذبة الألفاظ ، تذوب رقة ، ذات مفردات جزلة صحيحة ، ولشيوعها أصبحت من التراث الشعبي (الفلكلور) وقلما يعرف قائلها ، فاسمع منها :

يـا من يُبَشِّـر عن الغِيَّـاب   وبشـارتـه كِيْس بَـنُّـورِي[5]

ومن الـركـايب ثمـان ركـاب   ومن الذهب شحنة الهُوْرِي[6]

وقول آخر :

لي سِيْـد يوم أذكـره واطريـه   يـزول كُـلّ الحَـزَن عني[7]

---

(١) اذهب وأنا أذهب في طريقي ، وهذا الكلام يكفي .

(٢) خل الناس الذين وشوا بي عندك حتى فرقونا ينفعونك .

(٣) أساساً ، حفظت عهدك حباً واكراماً لك .

(٤) خنت العهد ، جزاك الله على ذلك ، وأنا أجزاك بالجفاء حتى أغبنك .

(٥) نوع من أكياس الخيش كان معروفاً .

(٦) الهوري : القارب ومن أسمائه : السنبوك ، والساعية ، وأحدث الآن اللنش ، و- قارب يسير بالالة .

(٧) سِيْد : حبيب ، سَيِّد ، أي سَيِّدي .

لَعَلّها ماتجيني فيه الّلي على الهَجْس والظَّنِّ

وقول آخر :

مني مداوي ومني داء وكم جرح لاهْلَ الهَوَى داويت
وكم من طَنَيْته بَقْولَةْ لا غير الحَبِيب الذي حَيَّيْت[1]

وقول آخر :

الله ، يا حَبَيِّبي ما اقْسَاك وانا على الصبر ما أقْوَانِي
كم ليلةٍ بتّ في رَجْوَاك سَهرانْ والنوم ما جاني

وهذا اللون كثير ، ولهم به ولع وطرب .

والمرأة قد تتغزل أيضاً .

يصل إلينا شعر شاعرات عربيات بعضهن معاصرات ، وكثيراً ما يسمهن مجتمعهن بالجرأة والتعبير المباشر ، ولكن هذه ليست إلاّ نسخة من رصيفتها البدوية .

على أن هناك قبائل محافظة ومناطق مخصوصة في جزيرة العرب لا تستطيع البدوية أن تصرح باسمها في الشعر ، وإلاّ لتعرضت للنقد اللاذع وربما لغيره، غير أن البدوية جزلة اللفظ جليلة المعاني تنعت المعشوق بالكرم والشجاعة . وهذه بدوية أعجبها الفارس حجاب ابن نحيب ، فأنشدت :

يا راكب من عندنا ضُمّرٍ حِيل
ثنتين كِنّ ارْقَابهنّ الحَنَايا[2]

---

(١) طنيته : أوجعته .

(٢) ضمر : جمع ضامر ، وهو ملهوفة الحشا ، مما يساعدها على سرعة السير . كِنّ : كأنّ .

وانْ روّحَنْ يَشْـدَنْ صَـرِيـر المَحَـامِيـل

والاّ سـبـاع بـايـتـاتٍ قَـوَايـا[1]

الصُّبْح يَمْشِنْ من طَوَارِف (مَكَاحِيل)[2]

والعصـر في ديـرة حميـد السجـايـا

مَلْفَـاك بَيْتٍ نَـايفٍ بـه مَعَـامِيـل[3]

بَيْتٍ كَـبيـرٍ نـايـفٍ بـالـبـنـايـا

وليـا لَفيتُـوا ثم جـاكم رَجَاجِيـل[4]

تـريَّحـوا عنهم وقـولـوا : وَنَـايَـا[5]

كُفُّـوا خبركم لَيْنْ فـات أوّل اللَّيْـل[6]

وردوا الخبـر لحجاب وابْـدُوا الخَفَـايا

البِيضْ كُـلٍّ تَـدْعَـج العَيْن بـالمِيْلْ[7]

وانـا عيوني من دمـوعي حَفَـايَـا[8]

عليـك يـا مَقْـدَم عِيالٍ مَشَـاكِيل[9]

يـا مُـورِد الهِيّـاب حَـوْض المَنَـايـا[10]

---

(١) يشدن : يشبهن ، المحاميل : المحامل .

قوايا : جياع .

(٢) مكان قرب حائل .

(٣) أواني القهوة .

(٤) رجال .

(٥) تعوب .

(٦) لين : إلى أن .

(٧) الجميلات كل منهن تكحل العين وتبالغ في ذلك .

(٨) وأنا عيناي حفيت من بكائي عليك .

(٩) مشاكيل : ظفران ، أبطال ، نشامى .

(١٠) يا مشجع الجبناء حتى يخوضوا المعارك .

فهذه البدوية تنعت معشوقها بالشجاعة وتذكر حبها في ترفع وصبر .

وهذه بدوية أخرى تذكر صاحبها بلوعة ووجد ، ولكن بلا اسفاف في القول ، وترفع من قدره بأنه من أهل العفة(ما مَشَى درب الإعوجاج) ، ومن الذين إذا أرادوا أمراً حصل لهم (ما هو من اللي قاصرات بتوعه) أي قليلي الحيلة .

فاسمعها تقول[1] :

يـا (فايـز الفَـرَّاج) قلب العَنَـا مَـاجْ[2]
وتبيَّنَتْ بـاقصى الضمايـر فجـوعـه

عَـيْنِـي بـهـا هَـزْمٍ وَلاَجٍ وَلـوّاجْ
عَيْنِي تَنَشّر يـا السِّنَـا فِي دمـوعـه[3]

تَشْبِـه لَهَـا غَـربٍ على بِيـر هَـدّاجْ
يـوم السـواني يـا الْحَبِّيب تـزوعـه[4]

أَقْنُبْ كـمـا ذِيـبٍ عـلى دراهـم دَاجْ
إذا رفـع صـوتـه تعاوت ضلوعـه[5]

---

(١) بتصرف عن كتاب : شاعرات من البادية .

(٢) القلب الذي كثيراً ما عناني زاغ من مكانه ، وظهرت فجعته بأقصى الحشا .

(٣) عيني تهل دموعها بلا هوادة .

(٤) بئر هداج : بئر مشهورة بتيماء (انظر معجم معالم الحجاز) والغرب : دلو كبير تجره الإبل على السانية . تزوعه : تنزعه من البئر .

(٥) القنيب : عواء الذئب . داج : حام . تعاوت ضلوعه : إذا عوى الذئب رددت أحشاؤه صوت عوائه ، وكأنها تتعاوى .

علـى عشيـر ما مَشَى درب الأعـواج
ولا هـو من اللي قـاصـرات بتـوعـه
ما حطني ـ يا محتمي الجِرْدْ ـ مِسْهَاجْ
قـولـه صحيـح وعـايـزات طبـوعـه[1]
أَنَا بَعَدْ ما انْسَاه لَـوْ هُوْ على عَـاجْ[2]
ولـو كـان ينـون النصـايب ربـوعه
والله مـا انسى صـاحبي يـابن فـراج
لـو الـشَّجَـر كُـلّه تَصَـرَّم جـذوعـه
ويُـصحِـي سِمَـاه ولا يـتمـثنـاه دراج
ويَسْكُـر هَـوَاه وَلَاشْ بَـرْدٍ يلوعـه[3]

---

(١) لا يتردد على بيتي هذا الحبيب حتى لا يعرضني لقول السوء ، ولا يكذب ، وطبـ نادرة . الجِرْد : جمع حرداء من صفات الإبل .
(٢) لا أنساه ولو وضع على النعش ، ولو وضعت عليه النصائب في القبر .
(٣) أقسم لك يا ابن فراج بأنني لن أنسى صاحبي لو فنى الشجر ، وأصحى السما ووقف الهواء وانعدم البرد .

التَّوجُّد وَالحَنِين

التوجد والحنين نوع يشبه الرثاء ، ولكنه ليس برثاء ، ويشمل الديار والأهل والحبيب ، وغيرها .

وهذا بدوي مَرّ بأرضٍ قد غاب عنها زمناً فأهاجت ذكرياته ، فأنشد :

سلام يا الديره اللّي لي ثمان سنين ما جيت[1]

واليوم لَمّتْ بِي الطُّرْقه وابا اردّ السلامي[2]

قالت لي الديـره : أنا طَيِّبـه والله يعافيـك

ما فاقده غير وبل الغَيْث ونزول الجْهامي[3]

وتذكر أحدهم أناساً كانت له معهم جيرة أو نحو ذلك ، فقال :

مسَيْكِينْ يـا حَيٍّ حَلاَلـه ورد عُفْسان[4]

وصَدَّرْ مع أم الـرَّيْن يَبْغي الكِنَانِيّـه[5]

---

(١) ما مررت بك من ثمان سنين .

(٢) ومررت بالمناسبة اليوم فأريد أن أسلم عليك .

(٣) تقول الديرة : أنا بخير ، ولكن لم ينزل الغيث ، وفارقني الناس (الجهام) .

(٤) بلدة تقع على ٨٠ كيلاً من مكة شمالاً .

(٥) ام الرين والكنانية : مكانان قرب عسفان .

سَقَى الله سَقَى الله مَنْ سَقَانِي وانا ظَمْيان

وعَلّق لي البَـدْرَة على الـدَّرْب ماريـه

ومثل هذا كثير .

ومن التوجد والحنين ما يدخل مدخل الغزل ، وهذه امرأة طلقها زوجها ، ثم مرت بأرضه فهاجت شجونها ، وأنشدت :

يـا عَينْ هِلّي صـافي الـدمـع هِلّيـهْ

وليـا انتهى صـافيـه هـاتي سِـرِيبهْ[1]

يـا عَيْنْ شُـوفِي زرع خِلّك وراعيـهْ

شِـوفِي مَعَـاوِيـدهْ ، وشـوفي قِليبـهْ[2]

إنْ مـرني بالـدَّرب مـا اقْـدَر أحـاكيه

مُـصيبـةٍ يـاوَيْ والله مـصِـيبَـهْ[3]

الـلي يَبِينـا عَيَّت الـنفس تَـبْغِيـه

واللي نَبِـي عَيّـا الـبَخَـت لا يجيبـه

وقولها : (اللي يبينا . . . الخ)

يشبه قول الأعشى :

علقتهـا عرضـاً وعلقت رجلاً غيري وعلق أخرى غيرها الرجلُ

وتذكر أحدهم ناقة له نجيبة أصابها ما يصيب أمثالها ، فقال :

هـاض بـالي يـوم أَحَلِّي نـاقـةٍ لِّي

راحت ايـديها من المَسْـرى نَحَايِف[4]

---

(١) سريبه : بقيته .

(٢) معاويده : الجمال التي تسقي الزرع بالسانية ، قليبه : بئره .

(٣) لو صادفني بالطريق لا أستطيع مكالمته يا لها من مصيبة .

(٤) حرك شجوني عندما أصف ناقتي كثيرة السرى ، التي كأنها الصقر المستقل في الجو

يـوم تـقفـي كِنَّـهـا الصَّـقْـر المـقلِّي
سـابح الجِنْحـان أبا الـرِّيش الخَفَـايف
خَضْـرَهـا مثـل الهُلَيِّـل يـوم أَحَلِّي
يـاكمـا خَضْــر الفَتَـاة من التــرايف[1]
مِنْـوة اللِّي مـن ديـار القَـوْم جلِّي
يمتنيهـا اللي من العُـرْبَـان خـايف[2]

ومن الحنين الذي يشبه الغزل قول فتاة جاء ابن عمها يبني بها ، فقال لـه أهلها : إنها ـ بعد ـ صغيرة .

فأرسلت إليه تقول :

يـا وَنَّتِـي وَنَّـيْتَـهـا بـالقـنَـيْـنَـهْ[3]
والضِّلْع أبـو الرَّيْحـان مِنْ وَنَّتِي وَنَّ[4]
يـا مَـرْسَلي قُـلْ لَّـه تُقُـل لَّـكْ فـلانـه
وَجْدِي على لامَاك يـا هَنَّ ابن هَنَّ[5]
اخْلُط لَـك السُّكّـر وتَمـرْ الـلِّبَـانَـهْ
بَضَـايعٍ في السُّوْق مـا قَطّ سِيمَنَّ[6]

---

(١) وخصرها يشبه الهلال ، وكأنه خصر فتاة مترفة .

(٢) يتمناها الخائف لينجو على ظهرها .

(٣) القُنَيْنَة : جبل بين المدينة ومهد الذهب . وانظر عنه كتابي (على رُبَى نجد) .

(٤) ومن هذه الأنة أن الجبل ابو الريحان ،إشفاقاً لحالي . وَنَّتِي : أَنَّتِي .

(٥) مرسلي ، وفلانة ، وَهَنَّ ابن هَنَّ : ضمائر لاخفاء الاسماء الحقيقية . وجدي على لاماك : وجدي على الاجتماع بك والعيش معك .واذا أرادوا أن ينادوا شخصاً دون ذكر اسمه ، قالوا : يا فلان أو يا هَنّ ، أو يا سمي ، أو يا عبد الله . وغيرها .

(٦) السكر وتمر اللبانة : كناية عما لا تستطيع تسميته ، سيمن : من السوم ، أي لا تباع في

وادي حَجُـر يـذكـر تَعَـدَّى صفَيْنَـهْ
وانّ الوَدَايا في حَجُر سَـاعْ أفـانَـنّ[1]

ورأى أحدهم شوفة أعجبته ، وليس له غير المسير ، وبعد أن ابتعد قال :

واقـلبي الـلي في مـكـاني نسيتـه
بـين الغـديـر ومن ورا الضِّلْع أبـو فَيّ
عَـوَّدت لـه من سـاعتي مـا لقيتـه
واقـلبي الـلِّي ضـاع مِـنّي وأنـا حَـيّ
كـله سبـايـب ظبـي شفتـه واريتـه
واقف عـلى المـورد ويسقي من ألْمَيّ[2]
يـا ليت حـل النّهْب فيهم يـا ليتـه
أشـيـلهـا واروح بهـا ثـنـيـة ليّ[3]

---

(١) وادي حجر سال حتى جاوز سيله صفينة ، وهذه الغروس في حجر ، على أول طلعها فهي قد بلغت واثمرت . حجر وصفينة مكانان جنوب غربي مهد الذهب ، وهما والودايا وسيل حجر مستعارة لما يفهمه المرسل إليه ، ولا لزوم لتسميته. وفي كتابي (على رُبَى نجد) معلومات وافية عن هذه النواحي .

(٢) اريته : رأيته . المي : الماء .

(٣) ليت النهب يحل في الحسان فآخذها .

الهجاء

البدوي ـ بطبعه ـ ينفر من السباب والشتائم ، والهجاء كثيراً ما يدخل في هذا الباب ، غير أنه إذا رأى ما يعيب قد لا يتركه يمر دون تعليق ، وقد يمسه مساً رقيقاً بقول أو شعر ، فالأقوال قد قدمناها في باب النقد ، أما الشعر فنحاول إعطاء لمحة عنه تبين خلق البدوي .

حدثت موقعة خاضها شاعر من البادية ، ثم بلغه أن أحد القرويين عاب قوم الشاعر ، وهذا القروي لم يحضر الموقعة وليس له فيها ناقة ولا جمل .

فأنشد البدوي الشاعر يرد على ذلك القروي ، قائلاً :

أنا هَيَّض عَليّ أمثال جتنا ماكما هِنّهْ[1]
بدعها واحدٍ في قريته يتبع سوانيها[2]
مريِّح في الغَرِيف ولا بدا في عالي القُنَّه
ولا وَايَق مخافهْ مع سبُورْ القوم باديها[3]

(١) هيض : حرك شجوني ماكما هنه : ما كما هن . والهاء . للسكت . أمثال : قصائد .

(٢) قالها : رجل في قريته يسقي بالسواني ولم ير ما حدث .

(٣) الغريف : مكان من ساية شمال مكة . وايق : أشرف .

سبور : جمع سابر : مراقب .

ولا عـانق جَهَاجِيـل الركـايب يـوم يَسْـرنَّـه
سرت من ليلها ما تصبح الاّ عند أهاليها[1]

ولا شاف الجهـام اللي صلاة الصبح له رَنَّه
كمـا رَنَّة منى ليتـك موايق ثم تُـوجِيهـا[2]

ولا شاف الكَسَارَى في النُّعُوش اللي لهم وَنَّه
كما وَنَّةْ حَمَامٍ في القصور مَهَوْجِرٍ فيها[3]

ولا شـاف الذيـاب ملاحمـه يـوم يتعـاوَنَّـه
يزوع الراقد اللي في منامه من تعاويهـا[4]

ولا شـاف النُّسُور من السمـا يوم يتهـاوَنَّـه
يموج القلب من بين العطايف من تهاويها[5]

ولا شاف البكار اللي مع المَاسُوق له حَنَّه[6]
تلدّ خـلافهـا والضـرب في أولهـا وتـاليهـا

ولا شاف الـصبـايـا اللِّي نصنّ الركب يبكنَّه
ولا شـافَنْ ذلـولــه لاتقـاد ولا يبـاريهـا[7]

---

(١) ولا مشى مع عرازيل الركائب المسرعة في مسراها حتى اصبحت عند أهلها .
(٢) ولا رأى الحي الذي كان له لجبة كلجبة منى يوم الحج .
(٣) ولا رأى من كسرت عظامهم محمولين في النعوش، ولهم أنين كأنين الحمام في القيلولة
(٤) ولم ير الذئاب التي سعرها لحم القتلى حين تتعاوى بأصوات يتزعزع لها النائم .
(٥) ولم ير النسور التي تتهاوى من السماء ، حتى أن القلب يرتعد من تهاويها .
(٦) ولم ير كرائم الإبل التي أخذت وهي تحن ، وتنظر خلفها إلى أهلها فتضرب لتستمر في السير .
(٧) ولم ير البنات اللاتي نصين الركب فلما لم يرين ذلوله بكين لعلمهن بما حل به .

ولا شاف الفتيل اللي مع الظفران له بَنَّه[1]

كما بَنَّة عطاير تاجرٍ ساق الذَّهَب فيها[2]

ومن عادة البادية أن يقود أحدهم قويدة ـ خروف أو نحوه ـ إلى من دعاه إلى عرس ، وهذه القويدة من عادتهم أن تذبح وتجهز ثم تقدم له ولمن معه ، ولا يحق لأهل الفرح تبديلها ولو بأحسن منها ، ولكن أحدهم قاد قويدة ثم رآها بعد ذلك حية ترعى .

فلام الفاعلين قائلاً :

تَدَبَّرُوا في قَوَدْنا ثم حاشُوْها مع الضَّان

هذا السَّلَف يا عنيةَ الله مَنَيْنْ مفيّنينه ؟[3]

لعلها يوم تسرح في صدفها الذيب سرحان

وَلَنَّكم لا جميل ولا حَوِيش مُحَوَّشِينه[4]

وغزا قوم فرأى أحدهم ببعض رفاقه جبناً ، فأنشد :

هاض بالي يوم دنّينا الرَّحِيلي

يوم سَبْر أصحابنا يَبْرَى ظَعنّا

يوم فالح وايق الحَيْد الزَّبِينِي

يستخيل المال وِخلَالٍ تبَنَّا

---

(١) ولم ير الفتيل الذي يشعله الشجعان ، وله رائحة ذكية .

الفتيل : حبل كان يشبع بالبارود ويشعل وتكوى به بنادق تثار بالنار . البنة : الرائحة الفائحة ، مثل ريح الفل او القرنفل أو نحوه .

(٢) العطائر : البضاعة المتنوعة ، مثل البن والدخان ونحوها .

(٣) ابقوا قودنا عندهم بعد أن بدلوها ثم سرحوها مع الضأن ، فمن أين أتيم بهذه العادة ؟ حاشوها : ساقوها . السلف : العادة . منين : من أين . مفينينه : محدثينه : الفائن الجديد .

(٤) سرحان : من اسماء الذئب . ولنكم : فإذا بكم . حويش : حصيل وفائدة .

وَالـرَّدِي مـن الـمـوارك مـا يـمـلي

والـدمـي تـبـراه وشـداده مـحـنَّـى

يـوم شـاف الـطَّرْح في تـالي الشَّلِيـل

قـال للحَـوّاش : رد المـال عنـا[1]

ورأى عبد الله بن حبيب العنزي قوماً قد حلقوا لحاهم تجمّلاً في إحدى المناسبات ، ورآهم يرمون ذلك الشعر في سلال القمامة ، فأنشد :

يا ربعنا ياللي حَلَقْتُوا لَحَاكُمْ وِشْ عِلْمكم ترمونَها بالقِمَامهْ[2]

وِشْ ذَنْبها وانتم بَعَد وِشْ بَلاكُمْ تَرْمُونها بالسَّطْل بَعْد الكـرامهْ

ذي بدعة ما سنَّها مصطفاكم وَعَـلامة يـا شِينَها من عَـلَامه

مَخْدٍ جبركُمْ ، فعلكم من رضاكم ومن يترك السُّنَّة عليه الملامهْ

ما هو فَخرُ تقليد شَغْلَةْ عداكم ولا هو تقدم بل ضلال وغشامه[3]

طاوعتم الشيطان واغوى جِدَاكُم ومن طاوعه يلقى العنا والندامهْ

لا تحسبون الحلق يرجع صباكم ما فات راح ، وتالي العُمْر خامه[4]

نبيكم عن حلقهـا قد نهـاكم صفوة قريش اللي رفيع مقامه

---

(١) الشليل : الغـارة : الحواش : الذي يسوق الماشية . المال : الأغنام والإبل .

(٢) ربعنا : قومنا . وش علمكم : ما خبركم . وش : ما . وش بلاكم : استفهام استنكاري .

(٣) غشامة : جهل .

(٤) خامة : قماش خشن يكفن به الميت .

الطَّنْز وَالاستهزاء

الطنز والاستهزاء والتنابز بالألقاب من الأخلاق القديمة عند العرب ، وجاء الإسلام بمقتها وتحريمها ، قال تعالى : ﴿ **ولا تلمزوا أنفسكم ولا تتنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان** ﴾[1] .

وتوعد القرآن المستهزئين ، وحقَّرهم وتكفل بردعهم ، ﴿ **إنا كفيناك المستهزئين** ﴾[2] .

ولكن هذه الخلال لا زالت لدى العرب ، إلا من اتقى الله ، وكثيراً ما ذكَّر عالمهم جاهلهم خِسّة هذه الألفاظ وتوجيهها إلى الناس ، ومع هذا فإنك واجد منها ما يعطي فكرة موجزة عن خلق البدوي .

وهذا رجل له بنت عم لم تعجبه فأراد أن يعرض بها وكأنه يمدحها ، وكثيراً ما يأتي الطنز والاستهزاء في جوف عبارات المدح ، فقال :

لي بِنْتْ عَمٍّ خصرها خصر بَكْرَهْ[1]
من قُضْفَهـا صَكَّتْ عليهـا المَـرِيـرَهْ[2]
والـودّ فـي قـلبـي دَرَادِمْ دَرَادِمْ
مثـل جُـرَيْـرات البَهَـم في الخَمِيلَهْ[3]

وقال أحد العيارين معتذراً من صاحبته :

يـا سَيِّدي مـا أعـرفْ غَيَـا من نَفِيسـهْ
مـا اعْـرِف مُرَيّحُ من مسيـل أم حَبْلَيْن[4]

وقال شبيه به :

يـا راكـب اللِّي مـردفتهـا تـحتـهـا
ركـابهـا دوبـه يَنُـوش الـوَطَـانُـوْش
في مصلحـة حـالـه وفي مصلحتهـا
والكُلّ منهم عذب الـروح مَدْهُـوش[5]

وقالت إحداهن تعير رجلاً بأنه فر أثناء موقعة :

اللي حَضَر في الرُّدُوْفْ وفي المضيق أَحَا عَزَاويه[6]
مـا يَـذْبَـحْ إلاّ ثَنَيْن ثَنَيْن وأمـر الله مَـرَادِي

---

(١) البكرة من الإبل الشابة .
(٢) القضف : عكس السعة . صك على الشيء : أحاط به . المريرة : حبل من غزل يربط به بيت الشعر . وهو يقصد : أن بطنها لا تكاد تحيط به المريرة !
(٣) الدرادم : كرات كحبات المشمش ، مثلاً ، وهي سخرية . واضحة جريرات البهم : آثاره في الارض .
(٤) غيا ونفيسه ومريخ وأم حبلين : أودية ينصب ماؤها على جدة الشمالية .
(٥) مدهوش : في غاية الفرح والمرح .
(٦) أحا : سمع من الوحي . الردوف والمضيف : قريتان بوادي الفرع .

فهي تقول : إن الذين كانوا في قرى بعيدة كانوا يسمعون اعتـزاء على الأعداء وإنه كان يقتل بالسهم الواحد اثنين لا واحداً .

وهو تعريض يعرفونه فيما بينهم .

ومن هذا القبيل : إذا سمعوا شخصاً يهدد ويتوعد ، وهم يعرفون أنه ليس صادقاً ، قالوا : الله يرحم قتـلاك ؛ طنزاً بـه واستهزاء .

ويقولون : إنّ شخصاً سمع بقتال بين قومه وآخرين ، فكان يركض ويقول :

يا الله اقهرهم لين آتيهم ! أي : أخرهم لي حتى أحضر .

فلما رآهم ودخل الخوف قلبه ، قال : يا الله اقلعهم قدهم ذولا ! .

وكلمة (قدهم ذولا) كلمة استكثار .

ومن طنزهم المقلوب ، قولهم : فلان صدوق ، وهم يعنون (كذوب) وفلان كريم : أي بخيل . وقد تسمع من يقول : فلان احترق دماغه من الذكاء ! أي أنه غبي إلى درجة البلادة .

أو يسأل رجل عن امرأة فيقال له : (الزين المزبور) أي زبر زين الناس كلهم فيها ، وهم يعنون عكس ذلك .

وجاء رجل ليتزوج من قوم لا يعرفهم ، فذهب إلى شيخ يستنصحه عن المرأة التي خطب ، فقال الشيخ : والله يا ولدي انها مَرَة ، وبنت رجال ، وتقسم خيرها على الناس .

فلما أخبر شويراً له ، قال : لقد ذم المرأة ذمـاً مقذعـاً فاحذرها !

يقصد قوله : (وتقسم خيرها على الناس . .)

والظرفاء منهم يقلبون الألقاب الرديئة ، فالأسود : أبيض ، والأعور: أبو عين كريمة، والضرير : بصير، والأعرج: سليم الرجل وهكذا .

أما الصفات الجسمية فلهم فيها أقوال مبتكرة ، فالقصير المعكعك يسمونه : سُلَيف النَّوَى . والقصير جداً ، يسمونه : شِبْرَين ، وقُعْرة الأرض ، والطويل جداً يسمونه : نخلة آل فلان .

وهم يقولون لك : ليس هناك إنسان لم يستهزىء بآخر ، ويضربون على ذلك قولهم :

وَيْن رحتي يا هزوه ؟ قالت : رحت أَتَهَزَّى[1] .

أي أن الهُـزَأة من النساء ذهبت لتستهزىء بأخرى .

وهذه بدوية عنست لعدم قبولها من يخطبها ، فهي تنتظر فارس الأحلام الذي أبطأ مجيئه ، وكان في الحي رجل تأخر هو الآخر في الزواج ، وأخيراً تزوج امرأة ليست ممن تروق في نظر الرجال ، فسألته هذه البدوية : كيف قبلت فلانة زوجة ؟ فقال : تشب لي ناري وتصلّح قهوتي واستر بها نفسي .

فأنشدت البدوية قائلة :

لا وَاهَنِّيـك من أَدْنَى الـزَّاد تِسْتَـادِمْ

نَفْسَـك تِطِيعَـك وما تـاكل تَهَنَّـا بْ

---

(١) وين : أين .

(٢) فلتهنأ بالاً ، لأن لك نفساً تقبل أدنى الأدم ، فهي تطيعك وما أكلت تهنأت به . عن الأدب الشعبي في الحجاز .

ونفسي تَـزَعْنَفْ ما غيـر تُـدُوِّر العـادم
والّلي يَبِي قَـوْسَهـا كَـاثِـرْةٍ أَنْشَـابَـه[1]
هَقْوَتِي إنِّي انصا المُـوَيْه أَجِيب لي خـادم
يُصَخِّـر النَّفْس يَـا دِبْـهـا بِمـشْعَـابِـه[2]

---

(١) أما نفسي فهي تأفف (تزعنف) طلباً للمعدوم ، والذي يغصبها على ما لا تهوى يكثر شره (انشابه) .

(٢) اظنني أذهب إلى المويه ـ مقر الإمارة ـ لآتي لها بجندي خادم ـ يطوعها بالمشعاب لتقبل ما تجد ، والا فستظل صائمة .



مصطلحات خاصة بالبدو

هذه كلمات شائعة لديهم ، وإذا تأملتها وجدتها تدل على خلق من أخلاقهم ، كحدة المزاج ، أو خفة الروح ، أو رجاحة العقل ، وغيرها من هذه الكلمات :

الدعاء :

من دعواتهم : جعله السابع والشر المتتابع ، هذه الدعوة تقال عندما يذكر البغيض مع رقم ٧ .

وأهل السراة يقولون : سَبْعَهْ شَلَّوْه : أي أخذوه ، ويقصد بالسبعة الشياطين ، فهم يزعمون أن أكبر عصبة من الشياطين يصعب التغلب عليهم هم سبعة . وإذا ضخموا شر إنسان ، قالوا : هذا عن سبعة شياطين .

ولذا يكرهون لفظ سَبعة ، وقد يقلبونه فيقولون : سمحة .

* طُسَّ طَسَّتْ عَيْنَك ، وتقال للحاضر والغايب . وكلمات : طُسّ ، وانْقلع ، واذلف ، وفارق ، وغُوْر ، وبَرَّهْ ، كلها لا تقال إلا لمن يراد صرفه صرفاً عنيفاً .

* مالت عليهم : هذا دعاء بأن تميل الدنيا على المعني فتنزل به ما يكره .

* ليت البحر قُرَيِّب !

والمعنى : ليت البحر قريب فأقذف فيه بالمخاطب .

ومن أمثالهم المعبرة :

* من طال عمره ذاق المآسي .

* صام وافطر على بصل . . يقال للذي يطلب مستوىً معيناً ، ثم يقبل ـ فجأة ـ بأدنى مما كان يعرض عليه .

* بغيتها سباعة وجت ضباعة .

أي بغيت أعمل عمل السباع (عملاً مشرفاً) ، فعملت عمل الضباع (عملاً رديئاً) .

وهذا كقول عمرو بن بكر : (أردت عمراً فأراد الله خارجة) .

* الا ظفر ما يخرج من اللحم .

* عرق شَرْيَة . ذلك إنْ الشرية مرة ، وهذا القول يقال لمن يشبه قومه في الخبث .

وهذا الباب يطول الحديث فيه ، غير أن أحد أصدقائنا قال : إن لديه مسجلات منه كثيرة يريد اخراجها في كتيب ، لذا تراني خففت هنا لأتيح المجال للمذكور لعرض ما ذكر ، ومن أقوالهم الاتباعية :

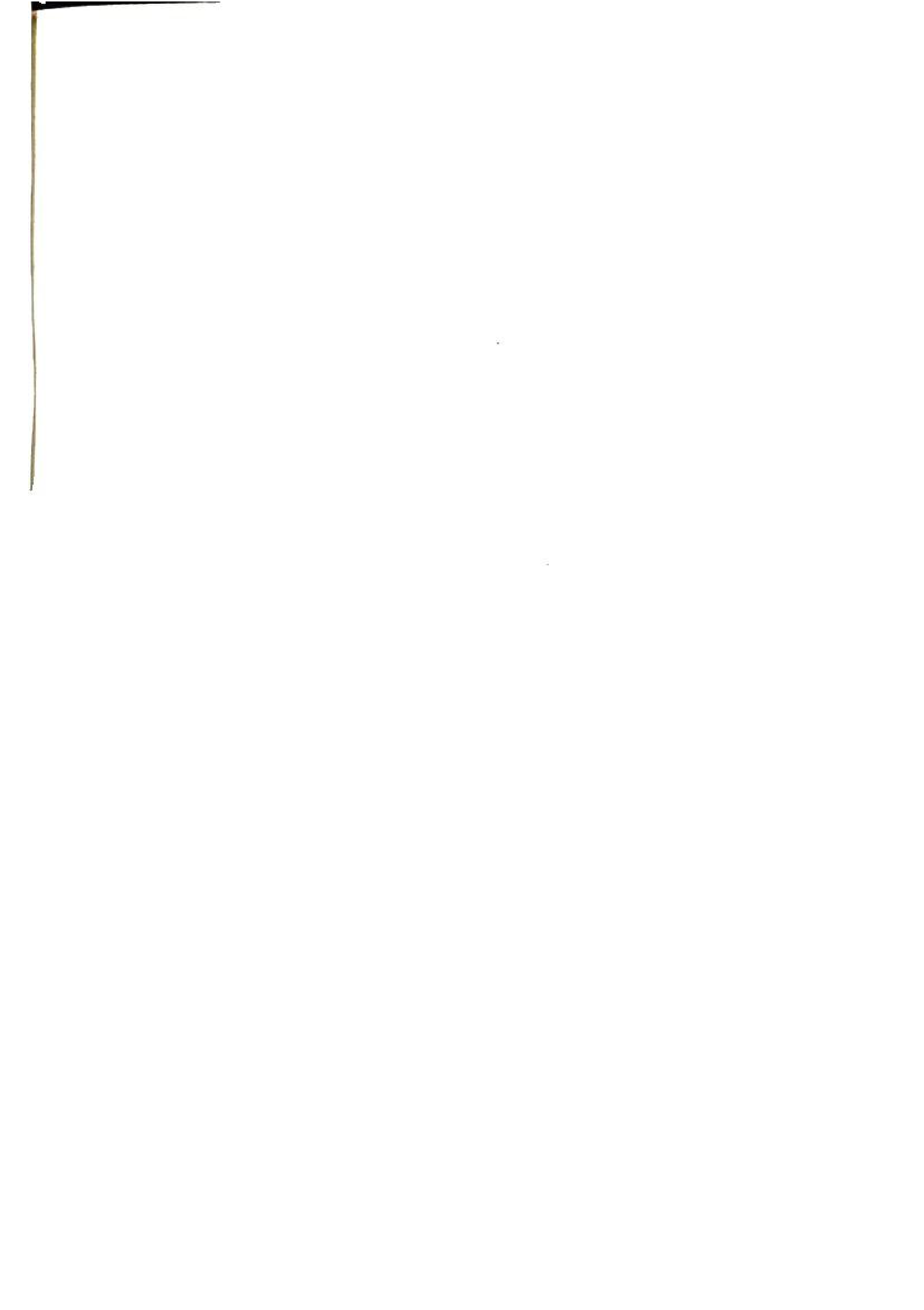
* عار وَشَنَار .

* النَّار ولا العَارْ .

* عَيْب وَشَقّ جَيْب .

* حَانِي مَانِي : يقال عند التردد .
* طَاق بَاق : للكلام الفارغ .
* خَرِيط مَرِيط ، أو خُرَطِي مُرَطِي : كلام فارغ .
* فيك ما لا فيك : قال فيه ما قال مالك في الخمر .

وهذا الباب أكثر من أن يحصى في عجالة .



دليل الموضوعات العامة

مِن منشورات دار مكة

١) **معجم معالم الحجاز** : كتاب جغرافي تأريخي أدبي ضخم ، يقع في عشرة أجزاء . تباع اجزاؤه مفرقة .

٢) **الأدب الشعبي في الحجاز** : كتاب أدبي ، يقع في **٤٥٠** صفحة طبع للمرة الثانية .

٣) **نسب حرب** : كتاب تأريخ ونسب ، يؤرخ لقبيلة حرب التي شغلت حيزاً من تأريخ الجزيرة خلال **١٤** قرناً ، طبع للمرة الثانية .

٤) **معجم قبائل الحجاز** : كتاب عن أنساب القبائل التي قطنت الحجاز من فجر التأريخ إلى يومنا هذا، ويتتبع بعض البطون التي نزحت إلى البلاد العربية، الأخرى . مثل : الأردن ، العراق ، سورية ، مصر ، السودان ، وغيرها . يقع في **٦٠٩** صفحات ، طبع للمرة الثانية .

٥) **على طريق الهجرة** : كتاب رحلات ومشاهدات لمنطقتي مكة والمدينة ، ومواقع الغزوات التي حضرها الرسول صلى الله عليه وسلم ، وبه خرائط تنشر لأول مرة .

٦) **معالم مكة التأريخية والأثرية** : معجم عن أماكن مكة وما حولها . طبع للمرة الثانية .



٧) **رحلات في بلاد العرب** : رحلات ومشاهدات في شمال الحجاز والاردن ، قبائلها وجغرافيتها ونبذ من تأريخها . طبع للمرة الثانية .

٨) **الرحلة النجدية** : رحلة طويلة في أرجاء نجد الواسعة ، أنساب قبائلها ، وصف كثير من المدن والقرى ، العمران ، الحالة الاجتماعية ، النهضة في الرياض ، الفكر والصحافة والأدب هناك . طبع للمرة الثانية .

٩) **طرائف وأمثال شعبية** : (من الجزيرة العربية) طبع للمرة الثانية ونفذ .

١٠) **بين مكة وحضرموت** : رحلات ومشاهدات في بلاد : عسير ، نجران ، الربع الخالي ، قبائل اليمن وحضرموت ، أنسابها وتأريخها .

١١) **المعالم الجغرافية في السيرة النبوية** : معجم يحوي جميع المواضع التي وردت في كتاب السيرة النبوية ، في جزيرة العرب ، والأردن ، والعراق ، وسورية ، ومصر ، وغيرها ، مزوداً برسوم توضيحية .

١٢) **بين مكة واليمن** : رحلات ومشاهدات للمنطقة الممتدة من مكة جنوباً بين البحر والسراة : قبائلها ، جغرافيتها ، تأريخها ، عادات وتقاليد شعبها ، وحالته الاجتماعية . تحت الطبع .

١٣) **اخلاق البدو** : (في اشعارهم واخبارهم) بحوث تبين خلق البدوي ، وحياته ، مدعمة بأنماط لطيفة من اشعارهم ، وطرائف من قصصهم .



